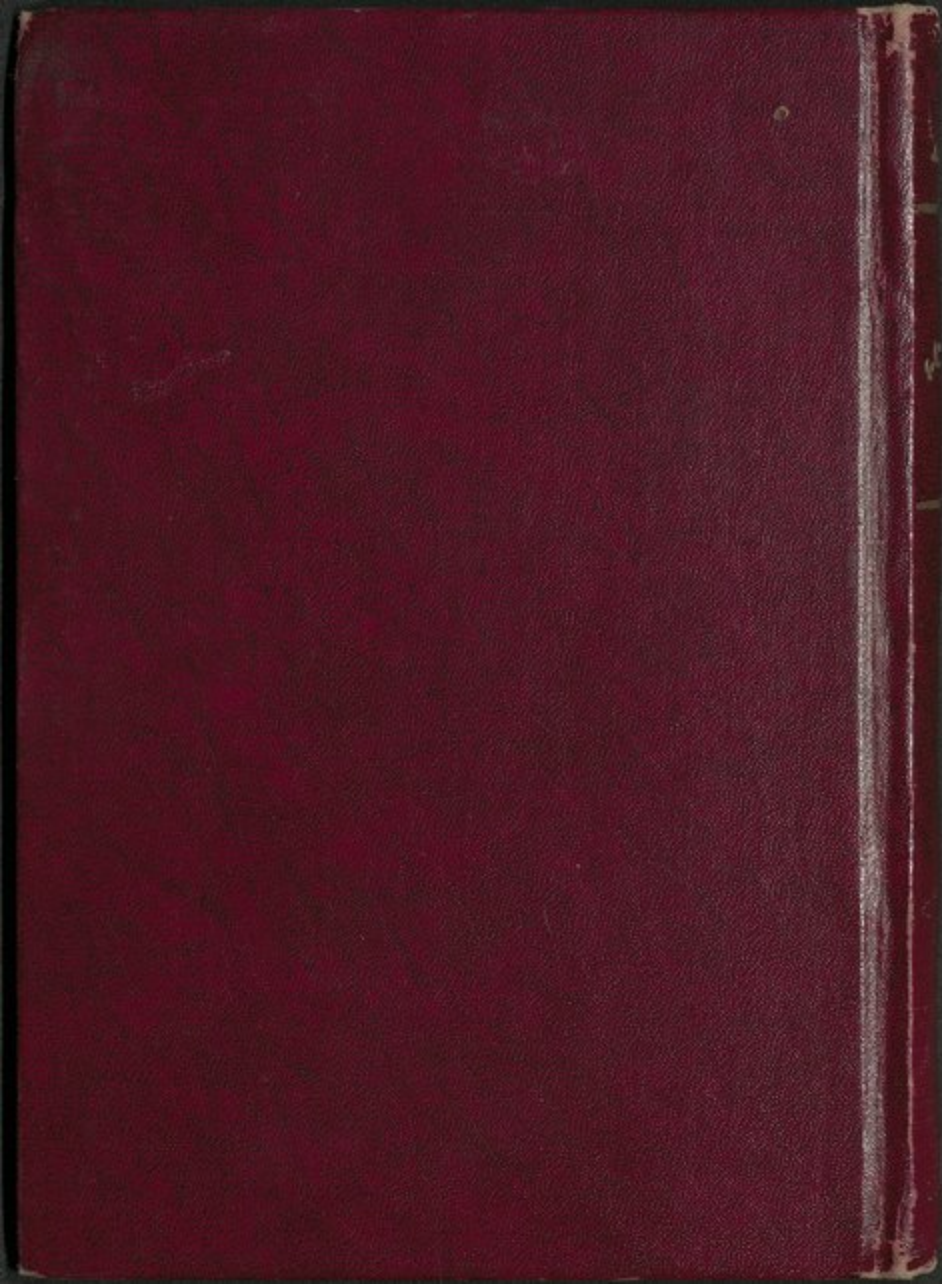
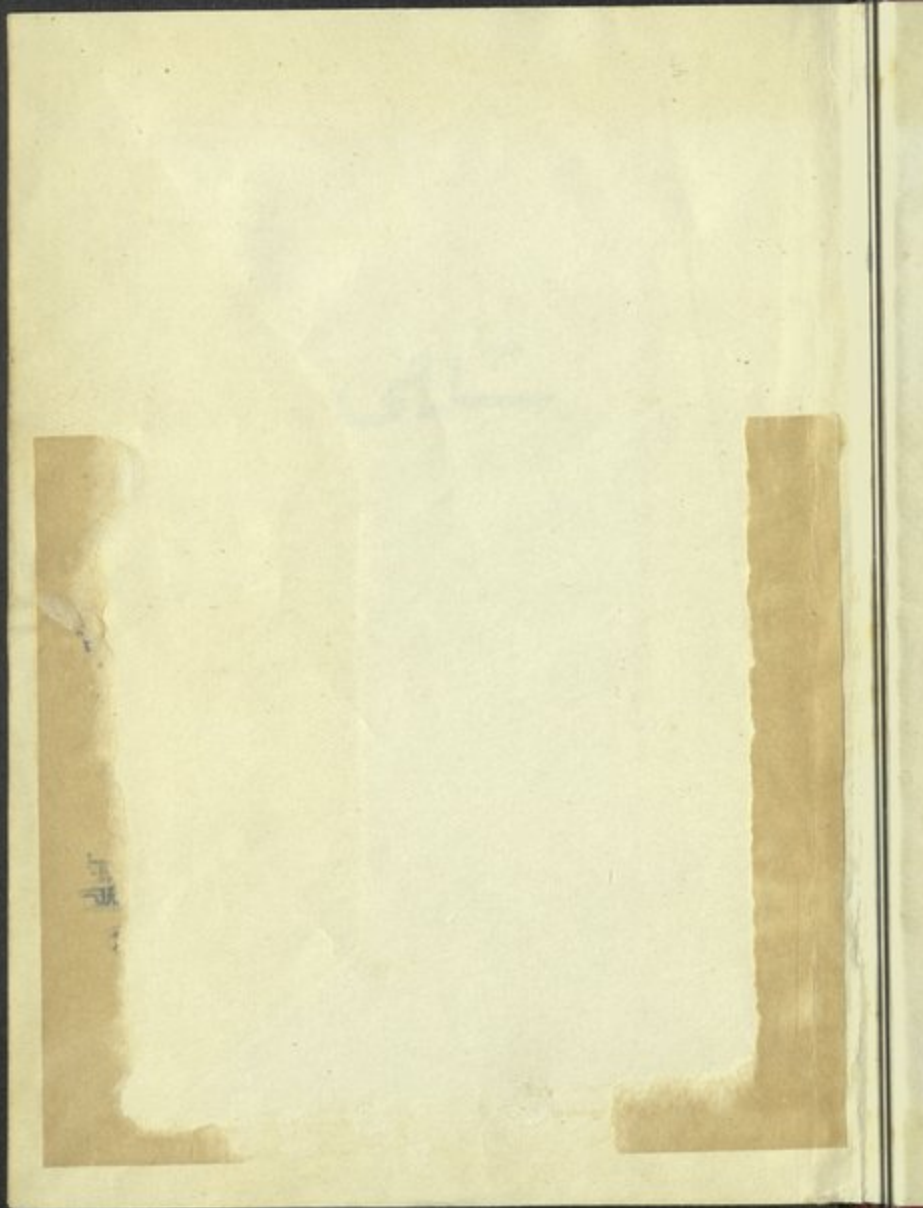
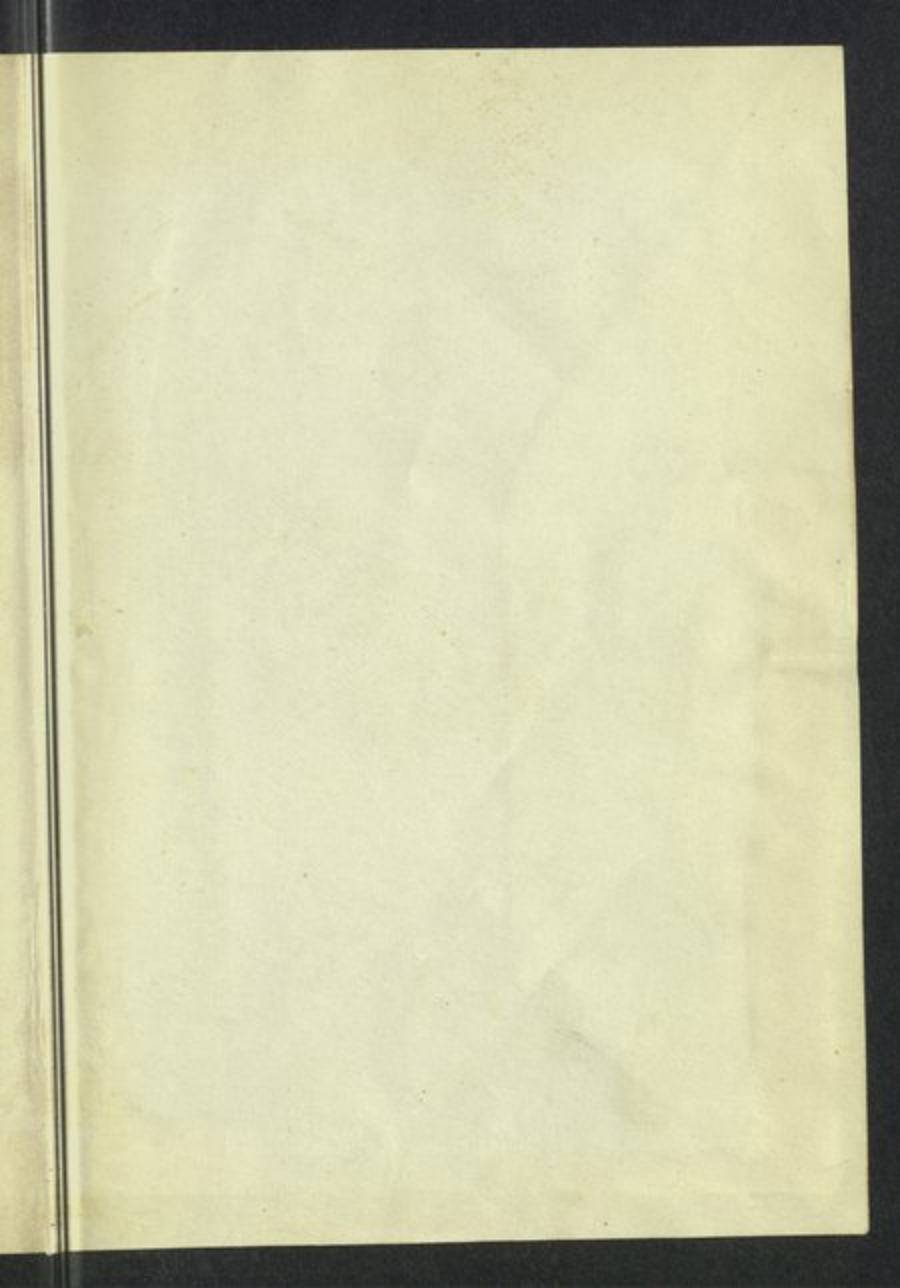




AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

تجليد كتب
صالح الدقر





شلاى

828
S/545 Ym4A
C.1

أحمد الصاوي محمد



سلاي

١٢٨

اقرا

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقراً ١٢٨ - أول يولييه ١٩٥٣



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

كان «الدكتور كيت» ناظر كلية «أيتون» الحديد رجلا قصير القامة ، شديد المراس ، يرى أن التأديب «بالفلقة» درس جميل .. وقد جلد أغلب وزراء البلاد ، وأساقفتها ، وقوادها ! كانت الثورة الفرنسية قد برهنت على أخطار الاندفاع في الحريات أو الانزلاق في الاستهتار إذا ما أصابت هذه الآفات الطبقات الحاكمة . ورأت انجلترا ، المحافظة ، أنها بمحاربتها نابليون إنما تحارب الإباحة وتخمدوها في مهدها . فأصرت على أن تخرج لها مدارسها العامة جيلا عاقلا مصانعا ، فاتخذت حيلتها لكبح جماح كل نزعة جمهورية محتملة في شباب أيتون الأرستقراطيين

وكانت العلوم في أيتون غير إلزامية ، ولذلك أهملت . وكان الرقص إجبارياً ! ... أما من الناحية الدينية فكان الدكتور كيت يرى الشك جريمة ، ومن العبث النقاش فيه وكانت تسود علاقات الطلاب بعضهم ببعض عادات تكاد تكون وحشية . فإن الصغار منهم كانوا للكبار عبيداً ! .. وكان كل «عبد» يرتب سرير «سيده» ، ويحمل له من

«الظلمة» ما يلزمه من الماء كل صباح ، وينظف ملابسه ،
ويمسح حذاه ! .. وكان كل عصيان يعاقب صاحبه بلون
من التعذيب يناسبه !

وكان للملاكمة الصدر الأول ، لمكانتها من الدفاع عن
النفس . حدث يوماً أن خلف شوط عنيف منها صبيّاً صريعاً
ملقى على الأرض ميتاً . فجاء الدكتور كيت فشاهد الجثة وقال :
« هذا يؤسف له ، ولكنى حريص قبل كل شيء على أن يكيل
تلميذ « أيتون » لمن يهاجمه الصاع صاعين » ! ..

غير أن بعض النفوس الحساسة ، وقليلاً ما كانت ، اشتد
عذابها ، وطال ألمها . . ومن هذه النفوس كانت نفس الفتى
« پرسی شلى » نجل أحد كبار الملاك الأغنياء فى مقاطعة
سوسكس ، وحفيد البارون السير بيسيش شلى . فقد أظهر قلقاً
لم يؤلف فيمن كان من طبقته ، وأبدى نزعة لا تصدق فى
تطبيق « قواعد اللعب »

وكان هذا الفتى جميلاً ، أزرق العينين ، أشقر الشعر ناثره ،
ناعم البشرة كالطفل . . .

عندما جاء إلى المدرسة لأول مرة رأى فيه قباطنة السنة
السادسة : جسماً نحيلاً ، ووجهاً ملائكياً ، وهيئة أقرب ما
تكون إلى الفتيات . فتصوروه حياً ، لا يحتاج إلى أن يفرضوا

عليه إرادتهم قسراً . . بيد أنهم لم يلبثوا أن اكتشفوا فيه مقاومة
جاسحة وإرادة لا ترضخ . . وكانت عيناه النجلاوان ، الحلمتان
في ساعات الصفاء ، تبرقان تحت تأثير الحماسة أو السخط
ببريق وحشى . ويصبح صوته ، الرزين الرخيم عادة ، جمهورياً
متحسراً . . كان متمرداً يصدمهم ويصدهم عنه كل شيء فيه :
حبه للكتب ، واحتقاره للعب ، وشعره المرسل في الهواء ،
وقميصه المفتوح على نحره الأثنوى !

حكم شلى ، من أول يوم له في أيتون ، بأن الطغيان الذى
يفرض هذه « العبودية » على الصغار مخالف للكرامة الإنسانية ،
فرفض بنخسونة أن يخدم « سيداً » ، أو يطيع أحداً ، وصار خارجاً
على ذلك القانون !.. فسموه « شلى المجنون » ، وتضافروا على
اضطهاده ، وملاحقته فى كل مكان ، يحاصرونه كما يحاصر الصيادون
الأيل الوحشى ، فيقف وظهره إلى جدار ، ويصرخ صراخاً متواصلاً
يصم الآذان ، وهم يرجونه بكرات مبللة بالوحل ، ويصبح
صائحهم : « شلى » . . فيرد عليه صوت آخر صادعاً :
« شلى . . شلى . . » !.. وتتجاوب بالصدى الجدران !

ويتراحم عليه « السادة » و « العبيد » ، هذا يجذب ملابسه ،
وذلك يقرصه ، وثالث يخطف الكتاب الذى يضمه إلى إبطه
ويلقيه فى الوحل . وتتجه الأصابع كلها مشيرة إليه ، ويتجدد

الصياح ، وتبلغ به الأزمة مداها ، فتنفجر منه سورة حنق جنوني :
 تلمع عيناه ، وتشحب وجنتاه ، وينتفض بدنه كله ، ويهتز
 اهتزازاً . فإذا انصرفوا عنه عاد إلى كتبه يمسح عنها الطين ،
 وراح بين العشب والماء يطالع أحد كتبه الحبيبة : مؤلفات :
 ديلروه ، وفولتير ، والفيلسوف المادى الملحد دولباك . .
 فقد كان معجباً بهؤلاء الفرنسيين الذين يمتقنهم أساتذته ،
 وكانت آراؤهم ملخصة بين يديه في مجلد جودوين Godwin :
 « العدل السياسي » ، وهو كتابه المختار ، الذى يبسط له الأمور
 ويبسطها . ولو أن كل الناس فى رأيه قرأوه لعاشت الدنيا فى هناء . .
 لو أنهم أصغوا إلى صوت العقل ، صوت جودوين ، لكان عمل
 ساعتين فى اليوم يكفى لغذائهم ، ولحلّ الحب الحر محل عقود
 الزواج الحمقاء . .

طوى شلى يوماً كتابه وأخذ يفكر فى شقاء البشر . وكانت
 مبانى الكلية الدانية ، من طراز القرون الوسطى ، يتصاعد منها
 لغط أصوات الغباء ، نحو هذه البرية الفيحاء ، المزدهرة
 بالغابات والغدران . ولم يكن حوله ، فى هذا الخلاء الهادئ ،
 وجوه ناضرة ضاحكة مستبشرة . . فأنهمرت من عيني الصبي
 الدموع . وضم يديه وقال بصوت مرتفع : « أقسم أن أكون
 عاقلاً ، وعادلاً ، وحرّاً ، ما استطعت إلى ذلك كله سبيلاً . .

أقسم ألا أتواطأ أبداً ، ولا بمجرد الصمت ، مع أهل الأنانية
والجبروت . . أقسم أن أكرس حياتي لعبادة الجمال . . .

— ٢ —

في خلال العطلة المدرسية يصبح هذا الجامح الآبق ولياً
للعهد . وكان أبوه المستر تيموثي شلى يملك قصر « فيلد بلاس »
في سوسكس ، وهو دار بيضاء ، متينة البناء ، تحيط بها
جديقة وغيابات شاسعة . .

هناك وجد شلى أخواته الأربع ، وكلهن فاتنة ، وأخاً صغيراً
عمره ثلاث سنوات ، علمه كيف يصبح : « الشيطان » ،
نكاية بالأتقياء ! . ووجد بنت عمه « هارييت » الحسناء ، التي
كانت تشبهه . . .

أما جده ، السير بسيس شلى ، فكان يسكن القرية . وهو
« چنتلمان » من المدرسة الإنجليزية القديمة ، يباهى بالغنى ،
وكان قد أنفق ثمانين ألفاً من الجنيهات على تشييد قصر فخيم ،
لكنه لم يسكنه لما تتكلفه سكناه من حاشية ! . . وعاش في كوخ
مع خادم واحد ، يلبس كفلاح ، ويقضى يومه في حان القرية
متحدثاً في السياسة مع المسافرين . وشقيت بالعيش معه كريماً
فهربتا ، وكان ذلك عنده مبرراً لحرمانهما من « الدوطة » ! . .

وكانت هوايته الوحيدة أن يزيد في ضخامة ثروته التي كانت مع ذلك هائلة ، وأن ينقلها إلى آل شلى يتوارثونها خلفاً عن سلف . فوقف الجانب الأكبر منها على حفيده « برسى » ، وحرّم بقية إخوته وأخواته حرماناً تاماً .

وكان تيموثى شلى ، ^{والسهمي} عضو البرلمان ، مثل والده ، طويل القامة ، قوى العضل ، أشقر الشعر ، جميلاً ، وجيهاً . قلبه خير من قلب السير بيسيش ، ولكن دونه مضاعفة عزيمة . يتمسك باحترام الدين ، ولكنه يتظاهر بحرية الرأي السياسى والدينى . . أما زوجته ، مسز شلى ، أجمل فتاة فى إقليم « سوسكس » ، فكانت تحب من الرجل أن يكون فارساً مناضلاً ، ولذلك نظرت بعين السخرية إلى ولدها الكبير برسى وهو يقصد الغاب حاملاً تحت إبطه بدل البندقية كتاباً ! . .

بيد أن شلى كان فى أعين أخواته رجلاً أعلى (سوبرمان) ، فلا يكاد يصل من أيتون حتى يزدحم البيت بالضيوف الغربى الشكل ، وتغص الحديقة بالأشباح ، ويتصاعد من جوانبها الحمس وكان شلى يختار لصحبته ، من بين أخواته الصغيرات العزيزات ، أقربهن إليه سنّاً وفكراً : « إليزابيث » . . فهى وبنت عمه الفاتنة « هارييت جروف » كانتا أعز مريداته كان هؤلاء الأحداث الثلاثة يربطهم الشغف بالبحث عن

الحقيقة . وكان شلى يسوق تلميذتيه الجميلتين نحو المقبرة ،
حيث يرى لأرواح الموتى الهائمة حوطم تأثيراً شعرياً ! . . . ويعلق
بفصاحة على ما يترأى له من شؤون الأرض والسماء ! . . . فمن
جانب الرذيلة : الحكام الطغاة ، والقساوسة المراءون ،
والأغنياء الشرهون . . . ومن جانب الفضيلة : الفلاسفة الحكماء ،
والمساكين ، والأشقياء . . . وقاموسه في هذا كتاب جودوين :
« العدل السياسى »

غير أنه كثيراً ما كان يتحدث إلى فتاتيه فى الحب :
— إن شرائع البشر تزعم فرض سننها على عواطفنا الطبيعية !
فيا للسخف ! فعند ما تلحظ العيون مخلوقاً جذاباً مشتعل الفؤاد ،
كيف يكون فى مقدوره أن يتجنب الحب ؟ ! . . . إن الحب
يذبل فى جو الضغط والإكراه . وجوهره هو الحرية . وهو لا
يتفق مع الطاعة ، أو الغيرة ، أو الخوف . فلا مندوحة له عن
الثقة ، والاستسلام التام . وليس الزواج إلا سجنًا . . .
والتشكك فى الزواج دعاية لاتندوقها العذارى ، وقلمنا تطيب
لهن . وعلى ذلك ترد هارييت :
— القيود ؟ . . . إنها بلا شك قيود . . . ولكن ما الضرر منها
إذا كانت خفيفة . . . لذيدة ؟
— إذا كانت خفيفة فلا معنى لها . . . أتوضع القيود والأصفاد

فى ىدى سىىن مؔطوع ؟ ..

— ولكن الدين ؟ ..

— ما ذنب خلأئق خلقتها الله ضعيفة ، ثم يعاقبها ؟ كيف ينتقم من العاثرين المساكن الذين يتركهم يتخبطون فى ضعفهم ؟ ! قصة يؤلفها هؤلاء الثلاثة .. إليزابيث تؤيد أخاها .. وهارييت تعارض ، ولكن أنى لها أن تقاوم « نصف الإله » هذا ، ذا العينين البرأقتين ، والقميص المفتوح على نحر شفاف ، والشعر المتطاير فى الهواء وكأنه خيوط حريرية ذهبية ؟ ! ويرخى الليل سدوله .. فتغادر الأخت المتواطئة الحبيبين الصأدين منفردين فى الظلام .. .

وفى طريق عودتهما معاً إلى المنزل ، فى كآبة الخلاء ساعة المساء ، يتذكر شلى أنه عائد قريباً إلى أروقة أيتون المظلمة ، فيكتب ، ويحزن .. ولكنه لا يلبث أن يحس تحت يده بجسد بنت عمه الدافئ يخفق ويرتجف ، فيشعر بنفسه ممثلاً شجاعة ، يواجه بها كالأبطال حياة كفاح ونضال ، يؤدى فيها رسالة

— ٣ —

فى أكتوبر ١٨١٠ أخذ المستر تيموثى شلى ولده إلى جامعة أكسفورد وهو مبتهج بهذه الرحلة التى تذكره بشبابه ، وقصد إلى

مكتبة « سلاتر » وفتح فيها للطالب الحديد اعتماداً غير محدود لشراء ما يلزمه من كتب وورق . . « إن ولدى هذا ، يا مستر سلاتر ، من أهل الأدب . وقد سبق له أن وضع قصة . فإذا أراد حتى النشر ، فدعه يرضى هوايته . . . »

واغتنب شللى بالحياة الجامعية : أن تكون له حجرة خاصة به ، وأن يكون حراً في حضور الدروس واختيار ما يروقه من الدراسات ، وأن يقرأ ويكتب ما يشاء ، أو يذهب ليلتزه كما يطيب له . . حياة الرهبنة والزهد تمتزج بحرية فكر الفيلسوف وفي المساء ، عند العشاء ، جلس إلى جانبه طالب جديد مثله ، قدّم إليه نفسه باسم « جفرسون هيج » Hogg ، ثم تحدثا عن مطالعاتهما . . فقال شللى :

— إن أفضل أدب شعريّ في وقتنا هذا هو الأدب الألماني فاعترض هيج ، مبتسماً ، بأن الألمان ينقصهم الطبع . . فهم مسرفون في الخيال . . ولذلك فهو يؤثر الأدب الإيطالي . . فاندفع شللى محتدّاً في نقاش . . .

ودعا هيج صاحبه إلى غرفته لإتمام المناقشة ، فقبل شللى الدعوة متحمساً ، ولكنه أضعاع في السلم حبل أفكاره ! . . وبينما كان هيج يشعل الشموع قال شللى بهلوه إنه لا يفهم سبباً في استمرار هذا الحوار ، ما دام يجهل الأديبن الإيطالي والألماني

على السواء !.. وخلصا من الأدب إلى الكيمياء ، وبدأ شلى خطاباً في مستحدث مكشفات الطبيعة والكيمياء .

وغدا الشابان لا يفترقان . فكانا ينتزهان كل صباح على الأقدام ، وشلى يعبث ويلعب كالطفل : يتسلق الرابي ، ويقفز الحفر . . فإذا ما وجدا جدول ماء أو غديراً أجرى شلى فيه مراكب من ورق ، وتبعها حتى تجنح وتغرق . . ويظل هج ينتظره واقفاً ضائقاً صدره . . وبعد الزهرة يصعدان إلى غرفة شلى وقد أضناه ما بذله من الجهد ، فيتراخي ، ويستلقي على السجادة أمام المصطلى ، منطوياً على نفسه كالقط ، وينام هكذا ، من الساعة السادسة إلى العاشرة . ثم ينهض فجأة ، ويدعك عينيه بعنف شديد ، ويتخلل بأصابعه شعره الطويل ، ويبدأ من فوره يجادل في موضوع من موضوعات « ما وراء الطبيعة » ، أو يروى شعراً . أو يتحدث إلى هج عن بنت عمه هارييت ، التي يكتب إليها رسائل طويلة تترج فيها نزعات الحب بفلسفة الإلحاد . أو يصف لصاحبه أخته إليزابيث العدو اللدود للأحكام المبسرة والتقاليد العتيقة ، أو يقرأ بصوت مرتفع خطاب أبيه الأخير ، صاحكا مقهقها . ثم يتناول أحد كتبه الأثيرة من مؤلفات الفلاسفة : لوك ، أو هيوم ، أو فولتير ، ويعلق عليه بحرارة

قبل عيد الميلاد بأيام تلقى المستر تيموثى شلى فى بريده خطاباً من ناشر كتب فى لندن ، يدعى مستر ستوكديل ، يصف له فيه الإنتاج الخارق للعادة الذى يريد الشاب برسى شلى أن يطبعه . وقال الناشر إن من بين المخطوطات العديدة قصة St. Irvyne ، وهى مملأى بأشد الأفكار الهدامة . . وإنه قلق لأنه يسلك طريقاً ملتوية خطيرة . ويرى من واجبه أن ينذر رب العائلة ، وأن يلفت نظره بخاصة إلى « جفرسون هج » رفيق السوء الذى يلزم مستر شلى الشاب

فكتب المستر تيموثى إلى الناشر ينذره بأنه لن يدفع له بنسأ واحداً من تكاليف الطبع

وفى عطلة عيد الميلاد كان لقاء شلى بأبيه مؤلماً ، وحاول شلى أن « ينير » والده فى شؤون الدين ، وراح يبرر « عدم الاعتقاد » . . ولكن أباه فرض عليه الصمت بتلك الحجة الأبدية : « إني أوؤمن لأننى أوؤمن »

وحذرت أمه بناتها من مخالطة شقيقتهم ، لئلا يفسد عليهن إيمانهن . وساد البيت حزن شديد لهذا الحادث ، بعد ما كان يفيض عادة فى مثل هذه الإجازة بالبهجة !

وظلت إليزابيث وحدها مغلصة سرّاً لشلى ، حتى بنت عمها « هارييت » لم تعد تشاركها إعجابها بأخيها ، فإن الرسائل التي تلقتها من أكسفورد ضايقتها وأقلقتها . وبرمت بما اقتبسه شلى من كتاب جودوين في الإلحاد ، فلم تزد إلا نفوراً وقلماً يتذوق النساء الحميلات الأفكار المتطرفة ! . إن الجمال ، وهو الشكل الطبيعي للنظام ، هو في جوهره محافظ . وهو يدعم الدين المقرر . وإذا كفرت المرأة بالله فكأنها أشد كفراً بالبيت والحياة والحب ، وكأنها تنكر مملكتها وتنفض يدها من وظيفتها وسلطانها وقد أظهرت هارييت أهلها على رسائل ابن عمها المتشككة ، فوجدوها مبادئ مردولة ، وحكموا بما ينتظر الفتى شلى من مستقبل مظلم . فهل كان يسعها أن تتزوج من مهووس ينفر من هوسه الناس جميعاً ؟ . . إنها تحب الظهور ، وتحب الأناقة والحفلات الراقصة . فكيف تكون حياتها مع هذا المخلوق الشاذ ، حتى الزواج ليس له عنده حرمة ولا ميزان ! فما بال حرمة الدين ؟ وقبل وصول برنى وقعت بين الفتاتين مشاحنات عنيفة ، دافعت فيها إليزابيث عن أخيها :

— كيف تضعين ، يا هارييت ، ترضية الكرامة المزعومة في كفة ، وهناء العيش مدى الحياة مع خير الرجال في أخرى ؟ — إنك تجعلين من أخيك مخلوقاً فائقاً ، ولكن ما يلزمني

أنه كذلك حقاً ؟ ولنسلم جدلاً بأنه عبقرى ، فأى حق لى إذن فى أن أبدأ معه حياة تنهى بخيبة الأمل عند ما يكتشف مبلغ قصورى عنه ، وبعدى عن المخلوقة العليا التى كوّنها فى مخيلته عنى ؟ ! إننى لست إلا فتاة عادية متواضعة ، أشبه ما أكون بسواى من الفتيات . . لسوف يدهش ويقنط عند ما لا يجد فى المثل الأعلى الذى رسمه لى . .

ولما جاء شلى بسطت له إليزابيث الموقف ، فهرول إلى هاربيت ، فوجدها ، كما وصفتها أخته ، جافية نائية . لم تسأله تبريراً لموقفه . وإنما سألته أن يتركها لحالها !
قال شلى :

— أفلا أستطيع البوح بما أعتقد . . ولم تنزل فى آرائى الدينية عن مكانتى عندك أختى ، أو صديقاً ، أو حبيباً ؟
— لك أن تظن ما تشاء ، فلا شأن لى بظنونك . ولكن لا تسألنى أن أربط مصيرى بمصيرك ! . .

وخرج شلى مجنوناً حزناً . وعاد أدراجه فى ثقاقل إلى البيت . واجتاز الغابات الثلجة الجرداء ، غير شاعر بما يهب عليه من جليد ، وقضى هزيعاً من الليل فى مقبرة البلد التى كانت مسرحاً لأحلام الحب الأولى . . ودخل الدار فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، وآوى إلى فراشه بعد ما وضع إلى جانبه طبنجة عامرة وكثيراً من

أنواع السموم .. لكنه تذكر ما يصيب شقيقته إليزابيث من الحزن عند ما ترى جثته ، فعدل عن الانتحار

وفي اليوم التالي كتب إلى هج يقسم ألا يعنف عن التعصب الذي يهدم المجتمع ، ويدعم الأحكام المبتسرة التي تقطع أعز الصلات وأحناها. ويشكو له ما أصابه منها، وأنها لم تعد له، بل صارت تمقته لتشككه .. ويحدثه عن الحب، وعن فكرة الانتحار ! وقضى الخمسة عشر يوماً الباقية من إجازته في جحيم ، بين أب وأم ساخطين ، وأخوات خائفات .. ورفضت هارييت أن تجيء إلى « فيلد بلاس » وهو فيه !

وحاول شللى أن يهدئ من ألمه برؤية هناء غيره ، ففكر في مشروع خطبة أخته إليزابيث لصديقه هج .. فأرسل إليه أشعاراً نظمها تلميذته هذه في هجو التعصب ، وقدم لأخته ما تلقاه من أشعار هج ، التي وصف فيها ما أصاب شللى نفسه في محنته ، فشبهه بشجرة البلوط الفتية ، وشبه « هارييت جروف » بالسوسة التي تنخر الشجرة بعد ما تتسلقها

وكان بوده لو تمكن من دعوة هج إلى قصر « فيلد بلاس » حتى تستطيع إليزابيث أن تراه ، وتحكم بنفسها على صفاته الباهرة .. بيد أن مستر « تيموثي » كان يذكر تحذيرات الناشر منه لأنه رقيق سوء ، فحال دون الدعوة .. .

بعد نحو شهر من هذه العطلة الحزينة ، بينا كان « سلاتر وموندای » ، صاحباً مكتبة أكسفورد اللذان أوصاهما المستر تيموثي شللى بنزعات ولده الأدبية خيراً ، يتحادثان ، إذ رأيا الفتى شللى يندفع إلى داخل حانوتهما ، وهو يحمل حزمة ضخمة من كتيب صغير . ورجاهما عرضها فى الواجهة البلورية ، وبيع النسخة منها بستة بنسات . وتولى بنفسه تنظيمها بحيث تلفت أنظار المارة . . ونظر صاحباً المكتبة إلى هذا الاهتمام منه بعين العطف ، الذى يظهره عادة تجار المدين الجامعية للطلاب الممتلئة جيوبهم بالنقود . ولم يعرفا أية مواد مفرقة عرضها شللى فى مكتبتهما .. كانت رسالة « ضرورة الإلحاد » ، وقد عزاها إلى اسم منتحل : « جرمياه ستكلى »

ولم تمض عشرون دقيقة على ذلك حتى مر بالمكتبة الأب « جون ووكر » المعيد بإحدى الكليات ، فوقف عند واجهتها مندحشاً : « ضرورة الإلحاد » ! . . ثم دخل المكتبة ، وصاح :
 — مستر موندای ! . . مستر سلاتر ! . . ما معنى هذا ؟
 — حقاً ، يا سيدى ، إنا لا ندرى شيئاً عن ذلك . .

ولم تفحص هذا الكتيب

— ولكن « ضرورة الإلحاد » ! .. والكتاب يعرف من عنوانه ! .. تفضلاً بإخفائه حالاً ، ارفعوا كل النسخ التي لديكما منه واحرقاها في النار ! ..

ولم يكن للأب ووكراً أية سلطة شرعية لإصدار مثل هذه الأوامر . بيد أن صاحبي المكتبة يعلمان أنه تكفى شكواه منهما لتحترم الجامعة على الطلاب دخول مكتبتهما . فأرسلا مستخدماً من المكتبة ليرجو المستر شللى الشاب أن يحضر لأمر يهمه :

— إننا آسفان يا مستر شللى لما حدث ، ومن مصلحتك أن ...
فأكد لصاحبي المكتبة المضطربين حقه في التفكير وإبداء
الرأى .. ثم قال :

— لقد فعلت ما هو أفضل من بسط شباكي أمام طيور
أكسفورد المنتوفة الريش ، العمياء .. وبعثت بنسخة من
« ضرورة الإلحاد » إلى كل الأساقفة الإنجليز ، ومدير الجامعة ،
وأساتذة الكليات ، مع تحيات « جرمياه ستكلى » ، بخط يدي
لا يد أحد سواي ! ..

وبعد ذلك ببضعة أيام جاء ساع يبحث عن شللى في غرفة
هج ، فأبلغه تحيات العميد ، ورجاه الذهاب إليه من فوره .
فذهب إلى قاعة مجلس الجامعة ، فإذا المجلس مجتمع بكامل
هيئته من فريق صغير من الأساتذة المحافظين الشديدي التمسك

بالدين والتقاليد . وكانوا كلهم تقريباً يمتقنون لشعره الطائر الطويل ،
وخروجه في الزى ، وميله الوضع للعلوم التجريبية ! . . .

أشار العميد إلى نسخة من « ضرورة الإلحاد » . . . وسأله
أهو المؤلف . ولما كان يتكلم بحفاء وازدراء ، فإن شلى لم يرد عليه !
— هل أنت مؤلف هذه النشرة ؟ . . « نعم » أم « لا » ؟

— إذا أمكنكم التدليل على أنني كاتبها فهاتوا برهانكم .
وليس عدلاً ولا شريعاً أن تسألوني بهذه الطريقة . مثل هذه
التصرفات أولى بمحاكم التفتيش منها برجال أحرار في بلاد حرة
— أتتكر أن هذا من وضعك ؟

— أرفض الإجابة

— إذن فأنت مطرود ، عليك أن تغادر الكلية غداً صباحاً
وسلم إليه أحد الأعضاء قرار الطرد . . فهرع شلى إلى
غرفة هج . وارتقى على الديوان وهو يرتجف من الغيظ ،
ويكرر : « مطرود ! . . مطرود ! . . » ، وأسنانته تصطك ...
وكان العقاب فظيلاً ، وكان معناه : قطع دراساته ،
واستحالة التحاقه بأية جامعة أخرى ، وحرمانه من الحياة الطبية
الواعدة التي يحبها ويستمتع بها ، وإنزال غضب أبيه وسخطه عليه !
فاستنكر هج هذا التصرف من أولياء الأمر . واندفع
فكتب لمجلس الجامعة مذكرة يرجو فيها ألا يكون الحكم نهائياً ..

وكلف خادماً بحمل هذه الرسالة إلى المحكمة التي كانت ما تزال
مجمّعة . فعاد على الأثر يبلغ هج أن العميد يدعوه إلى المجلس
وهناك سأله العميد :

— هل كتبت هذه ؟ ..

وأشار إلى الخطاب . فاعترف به هج . . فسأله العميد :
— وهذه ؟ ..

وأشار إلى نشرة الإلحاد . فراح هج يدلل ببراعة المحامي على
تفاهة الأمر ، وما في الحكم على شللى من ظلم . . فقال العميد ثائراً :
— كفى ! .. فأنت مطرود أيضاً ! ..

— ٦ —

حملت عربة أكسفورد المبعدين وحقائبهما . واقترض شللى
عشرين جنياً من صاحبي المكتبة ليعيش بها في لندن ،
ربّما يجيئه نأ من أبيه . . ونزلاً في غرفة في « بولاند ستريت »
جدرانها مغطاة بورق مزخرف بعناقيد عنب خضراء وزرقاء بدت
لها أجمل ما في العالم ! ..

وحدث ، ولا حرج ، عما أصاب المستر تيموثى شللى
لما علم بما حدث في أكسفورد ، فقد كانت تهمة الزندقة شنيعة ،
وكان العقاب رادعاً . فكتب إلى والد هج يشكو من هذه

المحنة التي وقعت لولليهما في أكسفورد . . ويرجوه أن يستدعي
 « فناه » لساعته . ويقول : « أما أنا فسوف أوصي ابني بقراءة
 كتاب پالى Paley ، في علم اللاهوت الطبيعي ، الذي يناسب
 حالته ، ويشفيه من فتنته . . بل سأقرأه بنفسى معه »
 ثم دبج لفتاه خطاباً قوياً قاسياً يأمره فيه أن يعود حالا إلى
 « فيلد بلاس » ويمتنع عن كل اتصال بالمستر هيج ، وأن يضع
 نفسه تحت تصرف السادة الذين سيختارهم له ، وأن يطيعهم...
 وإلا فإنه ينبذه ويتخلى عنه للشقاء الذي يحيق عدلا بمن تسول
 له نفسه مثل هذه الآراء !.. وجاء رد الولد قصيراً بالرفض التام...
 كان الوالد يريد بكل قواه أن يتجنب القطيعة التي تجعل
 وسائل التأديب عسيرة . أما وقد رفضت « شروطه » فقد سقط في يده !
 وسافر إلى لندن ، ودعا الشابين المتمردين لمقابلته بفندق
 ميلر المشهور بجودة الخمر . وقال لنفسه ، في انتظار
 حضورهما : « الحق أنه لا بد من معاملة الأولاد باللين
 والبشر ، والعقل الناضج المستنير كفيلا بالفوز دون عناء على
 فيلسوف في الثامنة عشرة من عمره ، وبذلك يمكن تجنب الكثير
 من الويلات . . وبعد ، أفليس شلى هو وارث الضيعة ، وإليه
 يعود اسم شلى . . فلا مندوحة عن رده إلى جادة الصواب »
 وأعد الرجل الطيب حججه المستقاة من كتاب « بالى »

الديني لتسفيه الزندقة، وفرك يديه بارتياح

وفي تلك الأثناء كان الفتیان قادمين على الأقدام من «بولاند ستریت»، يطالعان بصوت عال، في الشارع، وهما يتصاحكان: «القاموس الفلسفي» لفولتير.. وكان شللي يتلذذ بسخرية الفيلسوف الفرنسي من الشعب اليهودي وقسوة «يهوه» إله بني إسرائيل...

ووجدا المستر تيموثي شللي في انتظارهما مع «مستر جراهام» وكيله في لندن وصديقه. وأحسن المستر تيموثي وفادة هج، ووجه إلى ولده خطاباً طويلاً حامياً غير مفهوم، مصحوباً بالإشارات والحركات التمثيلية، التي بدت للشابين سخيفة. فانحنى شللي على صديقه هج وسأله: «والآن ما رأيك في أبي؟». فقال له هج همساً: «هذا ليس بأبيك.. هذا هو «يهوه» إله بني إسرائيل نفسه!». فانفجر شللي ضاحكاً مقهقههاً حتى استلقى. فاستغرب أبوه، وسأله مستنكفاً: — ماذا أصابك يا برسي؟ هل أنت مريض؟ هل جننت؟ وكان العشاء فاخراً طاب به الحديث. وفي ختامه بعث المستر تيموثي شللي بولده ليوصي بإعداد عربة السفر، وراح يحاول التأثير في هج، ويتخذ منه نصيراً: — إنك يا سيدي تختلف تماماً عما كنت أتوقع.. فأنت

سيد ظريف ، متواضع عاقل ، فماذا تشير على نحو ولدى المسكين ؟ فهو مهووس . . أليس كذلك ؟

— لو أنه كان قد تزوج بنت عمه لأصبح شخصاً آخر ، فهو بحاجة إلى شخص يعنى به . بحاجة إلى زوجة كريمة — ولكن كيف ؟ هذا مستحيل ! . . لو أنني عرضت الزواج على برسى لرفض حتماً . . فأنا أعرفه . . .

— إنه يرفض إذا ما أصدرت إليه أمراً بالزواج . ولكن إذا ربطت حباله بفتاة تعتقد أنها تكون قرينة طيبة له ، دون ذكر شيء عن الزواج ، فلعله يتعلق بها ، وإذا لم توفق الأولى فيمكن تجربة سواها ! . . .

فأطرى المستر جراهام هذه الخطة . . وأخذ الرجلان يستعرضان أسماء الفتيات . . .

وعاد شلى . فأمر أبوه بزجاجة أخرى من أعتق نبيذ إسباني ، وبدأ يثنى على ذات نفسه ، ولما أحس بأن النبيذ قد فعل فعله في مدعويه دخل في الموضوع الأسامي لرحلته ، وجادل ولده في الدين ولم ينكر أحد من الحاضرين وجود الله . . ومع ذلك رفض شلى أن يتبع أباه ، ورفض أبوه أن يعطيه بنساً واحداً . وعلى هذا افترقوا ، وفاز هج وحده بإعجاب والد شلى ، فقد وجدته إنساناً أرق من ولده ، وليس مثله كبرياء وعناداً ، وأنه يفهم الحياة .

ورأى فكرته عن زواج شلى معقولة . وكذلك رأى هج أن والد
صديقه سليم الطوية ، كريم الضيافة
أما والد هج فقد نصح ولده أن يتابع ممارسة القانون ،
ووجد له محلاً في مكتب محام بمدينة يورك . . فترك هج صديقه
شلى في غرفة « بولاند ستريت » ، كما لو كان ثعلباً حائراً بين
عناقيد العنب الخضراء والزرقاء . . .

— ٧ —

أما وقد بقي شلى وحيداً في لندن ، بلا صديق ، ولا عمل ،
ولا مال ، فقد سقط في مهاوى اليأس والقنوط . وكان يقضى
أيامه في غرفته ، ينظم الأشعار الحزينة ، ويكتب الرسائل إلى
هج . ولا يكاد ينصرف إلى التأمل حتى تتمثل في ذهنه صورة
بنت عمه الجميلة ، اللاهية . فيتعذب ، ويحاول جهده أن
يخلص قلبه من هذه الرؤى الأليمة ، مردداً « أنه لم يكن يحب جسد
تلك المخلوقة ، بل روحها ، التي تغيرت فلم تعد هي ، وعلى
ذلك لم يعد لها وجود . . »

غير أنه لم يجد في هذا التدليل المنطقي عزاء . وزادت
مسألة النقود تحرجاً . فلم يبدأ به حساً ، ولا خيراً . والتقى به ذات يوم ،
بطريق الصدفة ، في شوارع لندن ، فسأله بأدب عن صحته . .

فكان كل ما تلقاه من الرد نظرة سوداء ، كالغيوم ذات الرعود !
ولكن شقيقاته كن يرسلن إليه مصروف أيديهن ، وكان
ذلك كل ما يعيش عليه ، وكانت إليزابيث فى قصر فيلد بلاس
تحت الحراسة ، أما شقيقته الصغيرتان فكانتا فى معهد داخلى
اسمه « مجمع الشابات » ، ولم تلبث طالباته أن تعرفن بالعينين
الساحرتين ، والقميص المفتوح ، والشعر الثائر الطائر المجنون :
تلك المميزات التى خص الله بها أخا هيلين شلى !

وكان يجىء وجيوبه محشوة بالسكويات والزبيب ، ويبدأ
يتحدث فى الأبديات ، أمام حلقة من الصبايا المفتونات . . .
وقد عنى خاصة بأن « ينير » أجهلهم ! . . وكان أشد ما يكون
إعجاباً بزميلة أختيه وأعز صديقة لهما ، « هارييت وستبروك »
(هارييت أيضاً ! !) ، وكانت فى السادسة عشرة ، ذات
شعر أشقر أحمر ، وذات بشرة وردية ناصعة البياض ، صغيرة
القد ، نحيلة الغصن ، رائعة الحسن ، تفيض مرحاً ذكياً ،
ونضارة شائقة ! . وقد زاد نفعا عند ما أصرت مسر فتنج
الناظرة (بناء على أوامر تلقتها من المستر تيموثى) على الحد من
زيارات شلى لمجمع الشابات . وكانت هارييت تخرج كل يوم
صباحاً ومساءً ، ذاهبة من البيت إلى المعهد ، ومن المعهد إلى
البيت . فعهد إليها بأن تحمل إليه النقود ، والفطائر ، والحلوى . .

وهكذا أصبح ناسك صومعة « بولاند ستريت » خير صديق لها
 وكان والد هارييت وستبروك فيما مضى خماراً ، فأراد أن
 تتربى بنته تربية بنات الأشراف . ولما ماتت أمها تولت أمرها
 أختها الكبرى إليزا ، العذراء الناضجة

ولم يكن غريباً أن تهتم أسرة وستبروك بهذا الفتى النبيل ،
 الوريث لثروة طائلة ، الجميل كالآلهة ، الذى يعيش فى غرفة
 صغيرة على الخبز والتين الخفيف ، تحمل إليه الآنسة وستبروك
 الصغيرة « مصروف » شقيقته ليحول دون موته جوعاً . . .

ورغبت إليزا أن تراه ، فجاءت به هارييت إلى البيت على أثر
 إحدى جولاتهما . وكانت إليزا بادية العظام ، فى وجهها الأبيض
 الكالح آثار جروح وندوب ، وعيناها منطفئتان ، تنظران ولا تنطقان
 عن ذكاء ، وشعرها كتلة سوداء كالربوة تشرف على هذا كله.
 على أن شلى لم يلبث أن نسى نفوره البادى من قبح هذه العانس
 عند ما رآها تبدى له ودها . فهى لم تعارض فى زيارات أختها
 لغرفة « بولاند ستريت » ، بل شملتها برعايتها ، ودعت شلى
 مرات عديدة للعشاء معهما فى غياب المستر وستبروك .
 واكتسبت قلبه حين سأله بدورها أن تستنير وتتثقف ، مع
 هارييت ، بمطالعة « القاموس الفلسفى » تحت إشرافه ! . . .

وسرعان ما لوحظت فى « مجمع الشابات » نزوات هارييت

مع شلى . فنصحتها إحدى المعلمات بالخطر منه ، فربما كانت أخلاقه من نوع أفكاره الكافرة . ثم ضببطت معها رسالة منه ممتلئة بأخطر الحجج والآراء . فهددت بالفصل لمكاتبتها « زنديقاً » ! . ولوت بنات الأشراف أكتافهن لبنت الخمار

وبينا كان شلى ، ذات مساء ، يقرأ إلى جانب المدفأة ، وحيداً ، جاءه نبأ من إليزا بأن هارييت مريضة ، وترجوه أن يجيء ليؤنسها . فذهب ، فوجدها فى فراشها ، شديدة الشحوب ، ولكنها أجمل منها فى أى وقت مضى ، بغدائر شعرها الكستنائى الذهبى ، المرسلة من حولها . . وجاء المستر وستبروك لتجتيه ، فشعر شلى بالخرج حين رآه ، وبدت له غير لائقة هذه الزيارة الليلية فى خدر فتاة . . بيد أن المستر وستبروك كان ظريفاً ، فحياه ثم قال : « آسف لعدم استطاعتي البقاء معك . لأن عندى أصدقاء فى الطابق الأرضى . فتفضل إذا شئت بالانضمام إلينا فيما بعد » . . فشكره شلى . . وتمنع ، خوفاً من أصحابه ! وجلس إلى جانب فراش هارييت ، وإليزا بقربهما . . وكانت فى تلك الليلة ذلقة فصيحة ، فتحدثت طويلاً عن الحب . . وما لبثت هارييت أن اشتكت من صداع شديد لا تحتمل معه دوى الكلام . . فاستأذنتهما إليزا ونزلت إلى حجرتها . . وترك الشئيين الصغيرين وحدهما . . وبقي شلى إلى ما بعد منتصف الليل . .

لقد صار منى شلى أخف وطأة منذ أصبح يستقبل فيه الفتيات ، و « ينير » عقولهن . ومع ذلك كان يشكو بعده عن أخته إليزابيث التى لم تعد ترد على رسائله . . أتكون تحت الحراسة ؟ . ماذا لو أنه زار فيلد بلاس ذات مساء ، وقابل بالصمت لعنات أبيه ؟ . .

وجاءه الفرج بمجىء خاله « الكابتن بيلفولد » ، وكان هذا الكابتن البحرى شيخاً شهماً ، تولى بارجة تحت قيادة نلسون فى ترافلغار . . وكان يؤثر ألف مرة هوس ابن أخته ، الفيلسوف الشاعر ، على زوج أخته المستر تيموثى المتصلب . . وليس يعنيه من ىرسى شلى تشككه أو إيمانه . . فدعاه إلى ضيعته فى « ككفيلد » على عشرة أميال من « فيلد بلاس » ، وتطوع شلى بأن « ينير » مضيفه ، فأظهر الكابتن أنه تلميذ نجيب ، بحيث أدهش ، بعد أيام ثمانية ، قسيس القرية وطبيبها ، بحججه المنطقية النارية ! . .

وتعرف شلى بمعلمة الناحية « مس هتشنر » ، وهى فتاة جميلة ، ذات وجه رومانى ، فى نحو الثلاثين ، لها نزعة جمهورية ، مشهورة فى القرية بأنها خيالية ، ومتغطوسة . وكانت تشكو من أن أحداً لا يفهمها . وأعجب شلى بنبالة وجهتها ، لكنه امتعض إذ رآها تعتقد بالله وحده ، مع إنكار الوحي والنظم الدينية ! . .

فاقترح عليها أن يجادلها « بالمراسلة » لينقذها من ضلالها ! .. فقبلت
وفى خلال ذلك كان الكابتن بيلفولد قد حمل حملة صادقة
على زوج أخته المستر تيموثى شللى ، واستعان عليه بدوق نورفولك
زعيم حزب الأحرار السياسى . . فعاد شللى إلى فيلد بلاس وقد
منح مئتي جنيه سنوياً ، بلا شرط ولا قيد

ولقى أخته إليزابيث . غير أنه صعق لما أصابها من تغير ،
فقد صارت مرحة طائشة عابثة إلى حد لا يصدق . لقد عرفها
من قبل متحمسة ولكن فى وقار وكرامة . أما الآن فقد انصرفت
عن الفكر والرأى والجدل ، واندفعت فى تيار الملامى الخطرة ،
والحفلات الراقصة ، والأحاديث التافهة . . فحاول أن يتلو عليها
كما كان يفعل من قبل رسائل هج . . فصاحت :

— أف لك ولصديقك السخيف ! . . فكل الناس الذين
أعرفهم يحكمون عليكما بالجنون . . .

ثم عرجت على حديث الزواج . لم تعد تفكر إلا فيه .
وما كان ثمة شئ يملأ شللى رعباً كالزواج . فهل تراها نسيت ما
طالعه ، ومبادئ « جودوين » السليمة ؟ . . قال :

— الزواج شئ بشع كريه . وإن قلبى لينقبض إذ أفكر
فى هذه السلسلة الشنيعة ، أثقل ما صنعه البشر من الأصفاد
الحديدية والأغلال لتقييد النفوس الكريمة . . والناس الشرفاء ليسوا

بحاجة إلى الشرائع . . هل تريد رجلاً شريفاً يرضى بإخضاع مخلوق حبيب إليه ، عزيز عليه ؟

— ولكنك مع ذلك كنت تريد أن أتزوج صاحبك هج !
— أجل ، ولكن لا على يد قسيس ، أو طبقاً لشرائع الخلق ، بل زواجاً حراً ، الحب كاهنه ! . .
فقالت إليزابيث باحتقار :

— أهذه إذن هي النصائح التي تسديها إلى أختك يا برسى ؟
لقد ضاعت إليزابيث في نظره . لم تعد تنطق إلا عن الهوى !
إنه لم يحمي إلى هذه الدار إلا ليراها . فلم يعد أمامه الآن إلا الرحيل

وجاءته دعوة من ابن عم لأمه في مقاطعة ويلز . فلباها .
وفي مروره بلندن كتب إلى مس هتشير يتمنى لو رآها
وتغدى معها . فردت عليه بأنها تخشى مغبة هذا اللقاء على
سمعتها ، فضلاً عن التباين بين مركزها الصغير ومكانته
الاجتماعية ! . فاستنكر هذه الفكرة ، وكتب إليها خطاباً جميلاً
في المساواة بين الطبقات ، ودعاها فيه « شقيقة روحه » . .
فبدأت تفكر في أن اسم « اللادى شلى » هو اسم بديع . .
وراحت تنظر إلى نفسها في كل مرآة . . .

شلى الآن على صخور بلاد الغال ، يصغى إلى هدير السيول ، ويقرأ رسائل أصحابه . فهو ، من عزلته الموحشة هذه ، ما زال يوجه عدة نفوس : مس هتشر المعلمة ، هج الوفى ، خاله الكابتن بيلفولد الذى صار ويلا على المتقين ، إليزا وهارييت وستبروك . . وغيرهم

وتلقى شلى من هارييت رسالة أحزنته وأقلقتة . لقد أراد أبوها أن يرغمها على العودة إلى « مجمع الشابات » حيث الطالبات لا يخاطبنها ، والمعلمات يعددنها فتاة ساقطة . فهى تؤثر أن تقتل نفسها على البقاء فى هذا السجن !

وجزع شلى . فقد بدا له منطق تلميذته لا غبار عليه ، وهى دروسه التى كوّنت هذه التلميذة . ولكن أيتخلى عنها للموت ؟ إنها تستطيع أن تقاوم ، وتأبى العودة إلى المدرسة وكتب إلى أبيها خطاب عتاب . فاستنكر الخمار خطابه : فيم يتدخل هذا الفتى الأرستقراطى ، الذى يحوم منذ ستة أشهر حول بنتيه ؟ . . .

وزعمت إليزا أنه سيتزوج من هارييت . . ولكن هل سمع الناس يوماً أن بارونا تزوج من بنت صاحب حان ؟ إن هذا الفتى

ينشد ولا شك شيئاً آخر غير الزواج . فإنه منذ ذلك المساء الذى
 رآه فيه بحجرة بنته ودعاه لتناول كأس مع أصحابه فأبى واستكبر
 حكم بأنه لا يمكن لحفيد السير بسيش شلى ، صاحب الملايين ،
 أن يكون صديقاً للشعب ، أو نصيراً للمساواة !

وتلقت هاربيت منه أمراً بالاستعداد للسفر إلى المعهد .
 فكتبت إليه أنها أشد ما تكون شقاء ، وأنها مضطهدة إلى أقصى
 حد . . . وأنها مستعدة للهرب معه إذا قبل . . .

مامن شك فى أن عليه التزامات نحو هذه البنية . فهو الذى
 نفخ فيها من روحه ، لتكون روحها بأسلة ، تأبى قبول المظالم .
 وكانت رسالة منه هى السبب الأول فيما جرى عليها من الخزي .
 ولكن إذا هرب معها فكيف يعيشان ؟ وأين ؟ .. ومم ؟ .. فهو
 لاحرفة له ، وليس أمامه مستقبل ! . ويا ترى أهو يحبها ؟ وهل فى
 مقدوره أن يحب بعد اليأس الذى أردته فيه هاربيت الأخرى ،
 بنت عمه ؟ ..

بيد أن هاربيت هذه ذات حسن خلاب
 وأسكرته فكرة الرحيل بصحبة هذه الإنسانة الساحرة ، التى
 أثارتها إذ رآها ذات ليلة مريضة فى فراشها ، مجللة بغدائر شعرها
 المتألق كالنار . . لقد كان يعز عليه أن يبعد هذه الصورة اللذيذة
 عن خياله . فذهب إليها فرآها شحبت ، ونحفت ، واكتأبت :

— إذن ، فقد عذّبوك كثيراً ؟

— كلا . . . يا صديقي . . . كلا . . .

وترددت في أن تقول « إنما تعذبت لأنني أحبك » . . . غير أن ذبولها ، وعينيها المتعلقتين بعينيها ، واضطرابها ، هذه كلها باحت له بسرّها . فقد كانت مجنونة به ، مشغوفة حباً . وقد حوّلتها وبدّلها خلقاً آخر ، وهى من قبل قد أرادت أن تردّه إلى الطريق المستقيم ، ولكن منطقته جرفها في تياره ، وتقبلت هزيمتها ، راضية هائثة . . . وإنها الآن تعبد الرجل ، وتتبع المبدأ !

وكتبت إليه تعالى في متاعبها ونوائبها ، لكى يهرع إليها . . . فخيّل إليه أنه من الويل تكريس الحياة لامرأة ، إذا كانت هذه الحياة ستكرس لخدمة الإنسانية . بيد أنه ، إزاء هذا الوجه الفتان ، الذى تكفى كلمة واحدة منه لتبديد سحب الحزن المعقدة على جبينه ، ضعف ، وقرأ على مبادئه السلام . . . ولكنه استبعد فكرة الحرب حالا ، فلا حاجة إلى تعجيل الحوادث . . . ولكن لتطمئن هاربيت ، فإذا حاولوا معها تعسفاً أو عنفاً فما عليها إلا أن تدعوه ، فيلبىها ، ولو كان فى أقصى الأرض ، ويأخذها عنهم وكتب إلى هج يصف الموقف ، فرد عليه يرجوه ألا يهرب مع هاربيت قبل الاقتران بها . وكان هج يعلم كراهية شلى للزواج ، فجابهه بحجج قوية : « إذا كنت لاتزوجها ، فمن ذا

الذى يخاطر ويعانى ؟ إنها هى التى سيحتقرها الناس . إنها هى
التي ستضحى بسمعتها وأمانها ، فهل من حقتك أن تسألها هذا ،
أو تفرضه عليها ؟ »

ولم يكن شلى يشمئز من شىء اشمئزاه من الأنانية .
ولكنه أحس أنه بزواجه يرتكب أمراً مشيناً ! . كانت فصول
«العدل السياسى» عن «السلاسل الزوجية» تقلقه وتعذب ضميره ،
فقال له إن جودوين نفسه قد تزوج مرتين .. فاطمأن واستراح ،
لكنه لم يتعجل تطبيق الفكرة الجديدة

ودعاه عمه الكاتبين بيلفولد إلى بلدته ككفيلد . فلبى الدعوة
فرحاً بأنه هناك سيلقى المعلمة الجميلة ، ذات الوجه الرومانى ،
«شقيقة روحه» ، التى كان يريد أن يتم «تنويرها» وتلقينها تعاليمه !
ووعده هاربيت بأن يعود إلى لندن عند أول نداء منها . .

وقبل أن ينقضى أسبوع واحد جاءت رسالة مستعجلة
تدعو شلى إلى لندن ، فإن الطغاة يريدون من جديد تسليم الملاك
الكريم إلى الشيطان المدرسى الرجيم ! . فرأى شلى أن الداء لا
دواء له ، فعرض عليها : الفرار ، ثم القران . .

وفى اليوم التالى حملت عربة المسافرين إلى إدنبره ، عاصمة
أسكتلنده ، هذين الطفلين ، اللذين لا يتجاوز مجموع عمرهما
معاً خمسة وثلاثين عاماً . . .

زوجان عاشقان حدّان ، جميلان ومضطهدان ، يؤثران في النفوس ، ويستميلان القلوب ، إلى حد لا يكاد يُقاوم . هل يسع أهل إدنبره ، إلاّ الترحيب بهما ؟ . بهذين الزوجين الصبيين ، اللذين وصلا إلى أبواب مدينتهم في بؤس مشرق ! .. وكان شلى قد اقترض بضعة جنّيات من صديق لم يبق منها عند الوصول إلى إدنبره بنس واحد . وكان عبثاً أن يرجو مساعدة من أبيه المستر تيموثى ، الذى جن لفرار ولده . ومع ذلك فقد وجد مالكاً ظريفاً روى له قصته ، فأثرت فيه حكاية هذه المغامرة ، وآية جمال هارييت ، والوعد بالدفع السريع . فأجر لهما دوراً أرضياً بديعاً .. وأقرضهما المبلغ الضرورى للطعام خلال بضعة أيام ، وللاحتفال بعقد قرانهما طبقاً للطقوس الكنسية الاسكتلندية البسيطة . وكان شرطه الوحيد : أن يقبل شلى وزوجته دعوته إياهما فى ليلة زفافهما للعشاء معه وأصحابه .

وعلى ذلك احتفل حفيد السير بسيس شلى بليلة عرسه ، فى وسط تجار إدنبره .. وعملت نشوة الخمر ومحاسن هذين الزوجين الشابين فى رؤوس الضيوف ، أولئك الأتقياء الشرفاء .. وتطورت الدعابات إلى سفاهات . وزاد احمرار وجه هارييت

الحسنة ، المتواضعة . . فانصرف عنهم شلى وزوجته
وبعد فترة قصيرة قرعوا باب غرفتهما . ففتح شلى .
وقال صاحب البيت وهو يترنح ، ومن ورائه أصحابه جميعاً :
— إن العادة عندنا جرت بأن يأتى المدعوون ليلة الزفاف فى
منتصف الليل ، ويحتموا العروس بالويسكى . . .
فصاح شلى مسدداً يديه مسدسيه :

— إنى ألهب بالرصااص دماغ من يتجاسر على الدخول !
وكان صوته يرتجف ، وعيناه تبرقان كما كانتا تبرقان فى
كلية أيتون . فرأى تجار إدنبره أن هذا الفتى ، الذى له رأس
فتاة ، أشد خطراً مما يبدو ، وأقوى مراساً مما كانوا يزعمون . .
فانحنوا له ، وتمنوا ليلة طيبة ، وانصرفوا

إن بضعة أيام قد كفت هذا الزوج الشاب ، الذى كان
يرى أن عمله هذا « وليد الإرادة لا الهيام » . . كفته ليزوب
جوى وصباية ! . . وكانت هارييت فعلاً آية جمال : دائمة
الحسن ، دائمة النظارة ، والحيوية ، شعرها دائماً منسق ،
ممشط ، منظم ، بغير خصلة واحدة مجنونة طائرة . . فهى بهذا
كله أشبه ما تكون بزهرة بيضاء وردية مستوية على غصنها ،
أو ملكة مسنوية على عرشها . . وكانت ثيابها بسيطة جداً ،
ولكنها دائماً نظيفة أنيقة . وهى وإن لم تكن مثقفة حقاً ، فقد

كانت مهذبة جداً ، ولا سيما أنها قرأت عدداً كبيراً من الكتب . وكانت تقرأ طول النهار ، وتفضل الكتب الأخلاقية . وقد بعث فيها أستاذها وحبيبها روح الفضيلة والعفاف . وكان «تليماك» في قصة «فنلون» المشهورة هو بطله الأثير عنده ، فصار بطلها ! وكتب إلى مس هتشنر ، معلمة القرية ، « شقيقة روحه » ، يتساءل في قلق عما تظن في زواجه : « يا أعز صديقة ، أيمكنني أن أظل أدعوك هكذا ؟ أم أنني فقدت بسلوكي المبهم تقدير الحكماء والفضلاء ؟ . . . لشد ما نحن عبيد أرقاء للظروف ! . . . ولعلك تتساءلين كيف لي أن أرضخ لطقوس الزواج ! .. وإذا لم تكن هارييت ، وهي في السادسة عشرة ، ما أنت عليه في سنك المتقدمة عنها ، فساعديني على تكوين تلك النفس الجديدة بعنايتك ورعايتك . . . »

ودعاها أن تلحق بهما لتعيش معهما في إدنبره ، حيث صار وجود هارييت حائلاً دون أية مظنة

فلم تقبل مس هتشنر الدعوة . وربما كان نداؤه الشعري المحبب « يا أعز صديقة » غير كاف لحو العبارة المنحوسة الخاصة بالأعمار : « السادسة عشرة » ... « السن المتقدمة عنها » ... وذات يوم جاء هج ، ليقضى معهما بضعة أسابيع في إجازة . ولما رأى هارييت بهت من جمالها . فهو لم ير قط امرأة

مشرقة بالشباب والهناءة والحسن مثلها

واقترح شلى الخروج للتنزه وزيارة قصر مارى ستيوارت .
ولما خرجوا عاد شلى فاعتذر بأن لديه خطابات يكتبها ، ورجا
هاريت أن تصحب هج فى الصعود إلى الأكمة المشرفة على المدينة
كلها .. وأعجب هج بالمشهد كثيراً .. وظلا طويلا جالسين على
القمة . ولعل دليل هج قد راقه ، بحيث راقته التزهة أيضاً ! ..
وفى نزولها لاحظت هاريت : أن الهواء الشديد يرفع ذيل
ثوبها ، وأن هج ينظر خلصة ، باهتمام ، إلى كاحليها ، ومفصلي
ساقها ... فعادت ، وجلست على الصخرة ، وأعلنت أنها
سبقى حيث هى ، إلى ما شاء الله ، أو تسكن الريح .. وكان
هج يتصور جوعاً ، ففضى وحده ، وتركها ... وبعد ذلك
تبعته تجرى من خلفه ...

وكان شلى يخرج كل صباح لتسلم بريده الضخم ، وبعد
الغطور يترجم للعالم الفرنسى « بوفون » مؤلف « التاريخ الطبيعى »
الذى كان قد بدأ فى نقله إلى الإنجليزية . وتذهب هاريت
وهج للتنزه . فإذا ساء الجو جلست تقرأ له ، لأنها كانت تحب
كثيراً المطالعة بصوت عال ، وتحسنها الإحسان كله
وكان ذلك فى عام ١٨١١ ، عام النجم المذنب المشهور ،
وعام النبيذ الفاخر ، وعام الليالى المشرقة بالصحو والصفاء ..

لما انقضت إجازة الأسابيع الستة ، وأن لحج أن يعود ، قرر شلى وهارييت أن يصحبا ، ليعيشا معه فى يورك ، أصدقاء لا يفترون ، خلال الأشهر الباقية على مدة تمرينه ، ثم يذهب ثلاثتهم إلى لندن ، ليقضوا بقية أيامهم : يقرأون ، ويكتبون ، ويطالعون

وكان لقاء شلى لمدينة يورك مخيباً للأمل . فقد وجدها بلدة كئيبة ، غرفها حقيرة ، فكرهها . ورأى أن يقصد خاله الشهم الكابتن بيلفولد ، وهناك يزور مس هتشنر ، المعلمة ، « شقيقة روحه » . فلعلها تقبل الحضور معه إلى يورك . ثم يمر بلندن ، ويأتى معه بإليزا ، التى اشتاقت إليها هارييت . فسافر . وبقيت هارييت وهج وحدهما . فكان مركزاً غريباً لذيذاً معاً . فهما فى هذه المدينة طليقان كما لو كانا فى جزيرة بعيدة عن العمران . . وأحست هارييت بمسرة الطفلة ، إذ أصبحت هكذا « ربة بيت » لهذا الرفيق الشاب المرح . فإن هج ، بلهجته اللاذعة الساخرة ، يدخل على فؤاده ألواناً من البهجة ، وكان معجباً بكل ما فيها . يلحظ ثيابها ، وبزتها ، وزينة شعرها . ويصغى إلى قصة « تليماك » المملة وهى تطالعها ،

ويثنى على صوتها ! . . .

وفكر هج : هذه الدرة الفاتنة ، يتركها شلى له وحده عن طيبة خاطر ، وهى من أسرة خمار ، لم تربها على ملاحظة ضروب التحفظ والتحرز . . أن يعيش هكذا معها ، قد بعث فيه رغبة جامحة فى تمنىها بكل قواه . ولكنه قال لنفسه : « إن هذه فكرة سوء شنيعة ، وإن زوج صديق يحبه كل هذا الحب لا يجوز أن تكون طريدة له . . يلاحقها برغبته . . ولكن هل الذنب ذنبى إذا كان شلى يلقى بها فى أحضانى ؟ أيمكن أن يتصور المرء منه كيف يقضى أيامه ولياليه فى كتابة رسائل عن الفضيلة وفى بيته مثل هذه الدرة اليتيمة ؟ . . إنها امرأة آية ، ومعجزة فى الغاية »

وفى أول يوم لغياب شلى خرجا يتنزهان على شاطئ النهر . وطفق يحلق فيها ، مفتوناً بها ، ويقول لها ألوف الحماقات . فراحت تتكلم عن زوجها ، الذى تنتظر عودته بفارغ الصبر ، لأنها تريد أن تراه ، وتعلم أنه سيحمل إليها شقيقته العزيزة إليزا : — سوف ترى إليزا . . إنها جميلة جداً . ولها شعر أسود فاحم يتوجها . وهى حادة الذكاء . . وهى التى هدتنى فى الظروف الخطيرة التى مرت بى ، وهىأت لى من أمرى رشداً . . — أمرت بك لذن ، أيتها البنت الصغيرة ، ظروف خطيرة ؟

فروت له هارييت متاعبها في المدرسة ، ثم عقبات زواجها . وظلت فترة منحنية بفكرها على الماضي

ويمضيان هكذا في نزهتهما ، يتبادلان الاعترافات . . ثم يعودان إلى البيت . . فيعدان الشاي ، وهج لا يفتأ يمزح ويلعب . . ثم تقترح هارييت أن تطالع له . ولكنه لم يدرك مما قرأته في تلك الليلة حرفاً . .

وفي اليوم التالي قال لها إنه يحب جنون مستعر ! . . فاضطربت ، وسخطت . ودافعت عن نفسها . وذكرت شللى ، وتحديث عن الفضيلة :

— أفلاترى شناعة مسلكك ؟ . . أيعهد برى إليك حمايتى فتخون ثقته ؟ . . ولكننى مطمئنة إلى أنك قد شفيت لساعتك ! . . وأتوسل إليك ألا تشير بعد الآن إلى هذا كله بكلمة . . . ومن جانبي لن أحزن شللى القوى الإيمان بك ، فسألزم الصمت ، وأضرب صفحاً عما كان

وكانت تتكلم بحماسة ! . . واعترافات الهوى ومشاهده هي معارك المرأة الحميلة . والجندى الجرىء لا يكره القتال . . وانتصرت هارييت الباسلة . . ووعد هج بأن يكون عاقلاً

ولما عاد مساء من مكتبه رأى إلى جانب هارييت ، على الديوان ، امرأة كبيرة ، ذات شعر أسود . . فقالت له هارييت

— هج . . هذه إليزا . . . وقد جاءت . . أليس ذلك ظرفاً
 منها ؟ . . وهذا هو هج ، يا إليزا ، صديقنا الحميم ، الذي
 كثيراً ما حدثك عنه شلى . .
 فحننت إليزا رأسها بجفء . .

ومنذئذ صار جو هذا البيت عنده لا يحتمل ، فقد تولت
 الأمر فيه إليزا ، واحتلت مكانها فيه ، تقوده كما يقود القبطان
 باخرته ، يرفع على ساريتها علمه ، ولا يسمح على ظهرها بسيد
 سواه . . وقد بدأت عملها بانتقاد سلوك شلى نقداً مرّاً :

— إذن، فلو أنني لم أجيء لتركك شلى هكذا وحدك مع رجل
 شاب ؟ . . إن هذا لا يليق . ويناديك : « يا حبيبتي
 هارييت ؟ » وأنت تسمحين له به ؟ يا لرحمة السماء !

كان هج منذ محاولته الأولى قد احترم وعده بأن يكون عاقلاً
 وقد فرحت بذلك هارييت وخاب أملها معاً ! . . كانت واثقة
 من قدرتها على الذود عن عفتها ، ولم تكن تكرر الإغراء لتبرهن
 على ذلك ! . . . وخرجنا يوماً في نزهة قصيرة ، فوقف هج على
 الكوبرى ، والنهر من تحته يجري ، ويغلى

— هارييت ، يا حبيبتي ، أفلا ترين أن إليزا تحسن عملاً
 لو انطوت في مياه النهر المتدفقة ، فتجذبها دواماته من شعرها ،
 فتدور ، ثم تدور ، كهذه القطعة من الخشب ! . .

فأدارت هارييت رأسها ، وانفجرت ضاحكة . . إن هج
 كان وقحاً ، ولكنه لذيذ الدعابة حقاً . .
 — ما أرق ضحكك ! . . إنها ضحكة موسيقية ، شجية ،
 تشرح الصدر . . أيتها العزيزة هارييت ! . .
 فأحست هارييت الباسلة أن الحرب على الأبواب ! . .

— ١١ —

فى اليوم التالى عاد شلى قبلما يتوقعون . وهو لم يوفق فى
 شىء ، فقد رفض أبوه أن يراه ، وقال لبيلفولد : « لكنت أؤثر
 أن أدفع نفقة أولاده غير الشرعيين . . . أما أن يتزوج فلا
 تذكره لى بعد الآن بخير ولا شر ! . . »

وخشيت المعلمة مس هتشر على سمعتها ، فرفضت صحبة
 شلى إلى يورك . ولما مر بلندن عرف أن إليزا لم تنتظره . فرجع
 متعباً ، مضنى ، منكسر الفؤاد ، مؤملاً أن يجد عزاء فى صحبة
 زوجه وضديقه . فلم يجد إلا جواً ثقيلاً بالضيقة والخرج . .
 إليزا مغلقة على نفسها حجرتها ، تمشط شعرها ، طوال نهارها .
 وهج وهارييت لا يمزحان كعادتهما ولا يتجادلان ، فإذا ما خاطب
 هج هارييت ردت عليه بلهجة جافة . . فقال شلى لهارييت :
 — إني لا أحب منك ، يا عزيزتى ، مظهر الكبر الذى

تتخذينه إزاء هج . . فهو خير صديق لى . وقد جاء ليرعاك فى
غيابى . وإذا كانت أختك اليوم عندك فلا تجعلى هذا سبباً فى
التنكر لرجل أعده أخاً . . .

— يا له من صديق بديع ! لقد قال إنه يحبنى حباً جنونياً !
فحاولت أن أمزح وحملته على السكوت ، وزعمت أن الأمر قد
انتهى عند هذا الحد ، ولكنه أمس عاد فأعلن إلى أنه لا
يستطيع العيش من دونى ، وأنه سيقتل نفسه إذا لم أستسلم له !
فشعر شلى بدمه يحمد فى عروقه . وكأن قلبه قد كف عن
الخفقان :

— هج ! هج فعل هذا ؟ ! ولكن ألم تلفتيه إلى . . .
— قلت له كل ما يمكن قوله .. إنه يخون عهد الصداقة ،
وإنه يغتال ثقتك فيه ، فأجابنى : « وما شأن هذا كله عند ما
نحب ؟ .. إنه مما يناسب شلى ، ذا الروح البارد الجامد ،
أن يحاضر فى الفضيلة .. أما أنا فأحبك .. وكل ما بقى نافلة
لا يعتد بها .. ثم أى ضرر يحقق بشلى ؟ .. وفيم لىء إليه
ما دام سيظل جاهلاً بعلاقتنا ؟ .. فلماذا لا تعدينى بحبك إذا
ظلمت محتفظة له بعطفك ؟ .. وهل هو يعنى كثيراً بك ، أو يفكر
فيك ؟ .. » وقال عنك إنك متحمس للخزعبلات والأوهام ،
وإنك شعلة أفكار ، ولكنك جلمود ثلج إزاء العواطف ، وليس

لغير العواطف وزن في حياة الإنسان . . فأجبت جاهدة ما
استطعت إلى الجواب سبيلاً . .

فخرّ شللى على الديوان مرتعشاً ، وبدت له الدنيا غبراء
متشحة بنقب سوداء ، ودارت به الأرض . . ثم سقطت من
عينه الدنيا . . . « أما أن هج قد حاول غواية زوجتى ، وأن
يختار لهذا اللحظة التى أعهد فيها إليه رعايتها . . . وهو الذى
كان قلبى لا يفيض إلا بمحبته . . فما أشد هذا فسقا . . ومع
ذلك كان مسلكه فى أكسفورد نبيلاً ، مثالياً فى الإثارة . .
فلا بد لى من محادثته ، حتى يرى الغى من الرشد . . . »

وسأل هج أن يتبعه إلى خارج المدينة . . وكان هج يتوقع
هذا الموقف . واستعد له . فلم ينكر شيئاً :

— نعم . . هذا صحيح . . وقد أحببت هارييت منذ أول يوم
رأيتها فيه بإدنبه . . فهل هذا ذنبى ؟ إننى لا أستطيع مقاومة
جمال النساء . . وهارييت رائعة الجمال ، ف وقعت فى حبها لأول وهلة
— ليس هذا هو الحب ، ولكنه الشهاء . وهو غريزة
وضيعة . وليس هو تلك العاطفة الشريفة ، التى تفرق الإنسان
عن الحيوان . . الحب ؟ . . إن الحب يفرض نسيان الذات ،
والبحث عن هناء المحبوب . . وشعورك هذا ليس حباً بل أنانية !
— سمّه ما شئت . . إن هى إلا أسماء . . بل هو عاطفة

مروعة في جموحها ، وبودی لو قاومتہ ، لولا أننى وجدته لا يقهر
— ما من عاطفة إلا ويمكن قهرها ، وكبح جماحها .

والإرادة كفيّلة بالظفر بها ، والتغلب عليها

وكان هج شاحباً منكسراً . . يبدو شقياً . فهو قد أحب
شلى ، وهو يعلم أنه مامن امرأة تساوى التضحية بمثل هذا الصديق
— إني آسف لما حدث يا شلى . وأريد منكما أن تصفحا عنى

— إني أمقت خطيئتك ، لا شخصك . وأرجو أن يخبى حين
من الدهر تنظر فيه إلى ذنبك الشنيع بمثل ما أنظر إليه من
الاشمئزاز . وعند ما يحين ذلك الحين تكون الكفارة . فالشعور
بالندم يمحو الذنوب . . .

وشعر شلى بالراحة ، إذ كبح هكذا جماح غضبه وغيته ،
وإذ كشف لصاحبه عن طريق الخلاص ، وإذ كاد هو ينسى
الاعتداء

غير أن النساء دون ذلك تسامحاً . فعندما عاد شلى ، وأعلن
غفرانه للأثم ، صاحت إليزا :

— ماذا ؟ أترغب في معاشرة هذا الرجل ؟ يا للسوء الرحيمة ! ..
وماذا يكون من أمر أعصاب هارييت المسكينة ؟ !
وفي اليوم التالى عاد هج من مكتبه فوجد البيت خالياً ،
ينعى من بناه . . .

عندما هرب شللى والفتاتان من هج المنكود قرروا الذهاب إلى إقليم البحيرات . حيث يعيش شعراء أفذاذ من أمثال : « ساوثى » و « كولريدج » . واستأجروا كوخاً خلويّاً فى حضن الزهور . وجاءت مراسلات هج تدعو إلى اليأس منه ! ثم رسائل المعلمة مس هتشنر « شقيقة الروح » التى أصبحت - بعد سقوط هج - النجاة الوحيدة ، وموضع السر . . تسافر إليها من شللى كل يوم تقريباً صفحات رقيقة ، تضىف عليها هارييت دعوتها إياها للحاق بهما . .

ولما أخذت مسألة النقود تزداد كل يوم تخرجاً كتبوا إلى الدوق دى نورفولك ، فجاءتهم منه دعوة لقضاء آخر الأسبوع فى قصره وأتت زيارتهم له بأحسن النتائج . فإن المستر وستبروك عند ما علم بأن بنتيه قد قضتا بضعة أيام فى قصر دوق عظيم ، وأن زوج بنته قد وصل إلى ذلك القصر وليس فى جيبه إلا جنيه واحد ، نزل للزوجين الشايبين عن مئتين من الجنيهات معاشاً سنوياً ! ولم يستطع المستر تيموثى أن يبدو أشد منه بخلاً . فقرر أن يعيد إليه المئتين من الجنيهات فى السنة

وكان أهم ما فى الأمر عند شللى : أنه حصل على هذه

النتيجة المرضية ، دون أن يتنزل عن شيء من جانبه ، فكتب إلى والده أنه مع ذلك لا يمكنه أن يعد باخفاء آرائه في الشؤون الدينية أو السياسية . .

ولقي شلى الشاعر ساوئى الذى يعجب به ويحبه لأنه يربط فكرة الشعر بالحياة المجنحة المحلقة فى السماوات العلى ! . . فرأى الرجل يعيش فى بيت جميل ينبعث منه الدفء . غير أن زوجته أشبه بربة بيت مدبرة طاهية منها بالملهمة ! . . . كانت من قبل خياطة ، وهى لذلك تعجلد كتب زوجها بالقماش ! . . وكانت دواليب بياضاتها هى محراب نبوغها . . وكانت لا تتكلم إلا عن : النقود ، والطهى ، والخدم ، كأسخف الزوجات ! . . أما الشاعر فكان من رأيه : أنه لا بد للمجتمع من التحول ، ولكن لا يمكن أن يجيء التحول طفرة ، بل تطوراً بطيئاً فخرج شلى من عنده غضبان أسفاً !

ولم يكن ساوئى ليشك فى الأثر السيء الذى أحدثه فى نفسية شلى . ففكر فيه : « يا له من ولد غريب . . إن أشد همومه راجع لمعرفته أنه وريث أملاك هائلة ، وهو جزع قلق من دخل ستة آلاف جنيه فى السنة ، كما كنت فى سنه جزعاً قلقاً من أننى لا أملك بنساً واحداً . . . أما ما خلا ذلك فهو يكاد يكون طينى . يزعم نفسه ملحداً وما هو بملحد . إن هو إلا

مرض من أمراض الشباب أصابنا جميعاً ، ومر بنا . . . وخيراً
فعل بمجيئه عندي ، أنا الطبيب المداوى . . وقد وضعت له علاجاً
بمطالعة فلسفة « بركلي Berkeley » التي ستهديه على رغبه ،
من حيث يدري ولا يدري . . والله يعيننا على جعل هذا السيد ،
الفتى ، شلى ، يدرك أنه يستطيع ، بجنهاته الستة الآلاف ،
ضروباً عدة من الخير والبر . .

وهكذا التقت الفتوة اليافة بالسن الناضجة . وكانت
الثانية تقول للأولى : « يا نفس جدتى إن دهرك هازل ! . . »
ووجد شلى صدقة ، فى إحدى المجلات ، مقالا بقلم
الشاعر ساوثى ، يصف فيه جورج الثالث بأنه : « خير الملوك
الذين استووا ويستوون أبداً على عرش » . . كان ذلك تملقاً
مبتذلاً رخيصاً ، ولكن ساوثى كان يريد أن يصبح شاعر القصر
وطريق الوصول إلى آلاء الدولة طويل صعب المرتقى . . فلم
يغتفر شلى هذا النوع من الضعة . فأخبر ساوثى بأنه ، من الآن
فصاعداً ، سينظر إليه كعبد أجير . . وقطع ما بينه وبينه . .
وصار لا يعنيه من أمره كثير ولا قليل

ثم اكتشف أن معبوده جودوين مؤلف « العدل السياسى »
حتى يرزق . . وعرف عنوانه فى لندن ، فكتب إليه . . كتب
إلى هذا الرجل العظيم الذى يحطم سلاسل الزواج ، وهو عدو

الألوهية ، وإمام الملحدین ، وهو جمهوری ، وثوری ! .. فعبّر عن إعجابه ، وتقديره ، وتغانيه . وأنه يرى فيه شعلة النور التي تضيء الظلمات الضاربة من حوله . . . ويتمنى الاتصال به فلما تلقى جودوين هذه الرسالة سر كثيراً ، فهو بعد ما نبه ذكره عند نشره « العدل السياسي » عاد القهقري إلى الحمول ، وكاد يصير مغموراً . . وهو أيضاً ، مثل تلميذه هذا ومريده ، قد اضطرب حبل حياته ، وبعد أن كان في شبابه قسيساً انقلب في سن الثلاثين ملحداً وجمهورياً . وفي ١٧٩٣ نشر كتابه المشهور . فكاد « بت » رئيس الدولة يشرفه باتخاذ الإجراءات القانونية ، لولا أن ثمن الكتاب كان عالياً — ستة جنيهات — مما رأى فيه الوزير ما يكفي لدرء غائلة هذه المبادئ الهدامة . وبعد ذلك بأربع سنوات تزوج جودوين من « ماري وولستونكرافت » ، الأدبية النابغة . ثم ماتت وهي تضع بنتاً . فتزوج بأرملة تدعى « مسز كليرمون »

وصارت حياة جودوين مؤلة ، فقد كان لمسز كليرمون من قبل بنت وولد هما « جين » و « شارل » ، ثم ولدت من جودوين طفلها « وليم » ، أما ماري وولستونكرافت فقد تركت له بنته « ماري » ، وفتاة من زواجها الأول هي « فاني » ولكي يطعم جودوين كل هذه الأفواه عمل على نشر

كتب للأطفال ، وتولت زوجته إدارة المكتبة . وكانت حياته قاسية محزنة ، محرومة من مسرات الغرور . فتلقى رسالة شللى بحماس ، وفى رده على رسالته سأله المزيد من التفاصيل عن شخصه . . فبعث إليه شللى بخلاصة حياته ، حاملاً على والده « مستر تيموثى » ، وعميد أكسفورد « الدكتور كيت » . . وقال إنه وريث دخل يقدر بستة آلاف جنيه فى السنة ، وإنه تزوج من فتاة تشاركه أفكاره ، وقد نشر : قصتين ، وكتيباً فى الإلحاد ، سيرسلها كلها إلى أستاذه . . .

وأثر هذا الخطاب فى فتيات تلك الأسرة ، وقرأه جميعاً باهتمام عظيم . . وإن كان أبوهن لم يرقه تحامل الابن على أبيه ، فلعل أباه لم يرد له بذلك إلا الخير . . ولا يجوز للمرء الإسراف فى الحكم وهو فى ريق العمر ، ثم لا يجوز له خاصة التهور فى نشر أحكامه . .

وكتب جودوين إلى شللى أنه : « فى السن التى ينبغى أن يكون المرء فيها تلميذاً ، لماذا يتهالك على نفسه ليكون أستاذاً ؟ » ولولا أنه جودوين الموقر كاتب هذه الرسالة لسلكه شللى فى عداد أنصار التعصب المأجورين ! . . ولكنه انحنى بارتياح ورد عليه : « إني لا أسأل إلا أن أكون تلميذاً للكفاية العليا التى لا نزاع فيها »

وراح شلى بينى العلالى والقصور ، يضم النفوس
الأخرى الموعودة إلى حلقته الروحية . . أو لم يوفق فى الجمع
بين هارييت وإليزا ؟ . . إذن فليس أسهل من استئجار فيلا
شاحخة فى بلاد الغال ، يعيش تحت سقفها معهم : مس هتشنر
« شقيقة روحه » ، وجودوين « صديقه الموقر » ، وأسرة هذا
الصديق الحميلة ! . .

ولأنه رأى تشكك أستاذه فيه أراد أن يبرهن بمثل رائع
على أنه يستطيع شيئاً ، رغم سنه الباكرا . . فقبل أن يسكن
« بيت التأملات » سيذهب لقضاء بضعة أشهر فى إيرلندا ، مع
هارييت وإليزا ، ليعملوا على تحرير الكاثوليك الإيرلنديين
من تعصب مواطنيهم ، وتحسين مصير تلك البلاد المنحوسة

— ١٣ —

الفارس المغوار ، الذى جاء يحرر العبيد من الذل الروحي ،
والحرمان المادى ، قد رجمه هؤلاء العبيد بالطوب ! . . ففى
اجتماع للكاثوليك صفروا استهزاء ، إذ أعلن أن إبعاد الإيرلنديين
من المناصب العامة بسبب دينهم خطأ غير جائز ، لأن الأديان
سواء . . . فأثروا تعصب مضطهديهم على تشككه وإلحاده ! .
وكانت نشرته « خطاب إلى الإيرلنديين » التى وجهها من

قبل إليهم على مثل هذه النعمة . فهو يدلل على أن تحرير الكاثوليك يعد خطوة في سبيل التحرر العام المطلق ، وأن الطيبة ، لا البراعة ، هي التي يجب أن تكون مبدأ كل سياسة . . وأخيراً ، ينبغي للإيرلنديين — قبل أن ينتظروا تحررهم من الإنجليز — أن يحرروا ذات أنفسهم من مساوئهم ، بأن يكونوا : معتدلين ، عادلين ، محسنين . وجرى في أوام شللى أن تعاليمه هذه ستصل مباشرة إلى صميم قلوب فقراء « دبلن » ! . . وأعد نفسه للاستشهاد في سبيل هذا الإنجيل ! . .

ولم تكن هارييت دونه حاضرة . فكانا يتجولان في شارع ساكفيل وجيوبهما محشوة بالنشرات . فإذا ما توسما في أحد « علامة القبول » دسا في يده منشوراً ! . وكانا من شرفة مسكنهما الصغير يلقيان بهذه النشرات إلى المارة ! .

وكان جودوين ومس هتشنر يتوقعان كل يوم القبض عليه . ولكن ممثلي التاج في العاصمة الإيرلندية لم تزعجهم خطبه ولا منشوراته

وكان قلب شللى يتمزق إذ يرى رجال البوليس يجرون السكارى في الطرقات . . ولما رأت هارييت أنهم يشربون الويسكى لأن اللحم غال جداً أضربا عن أكل اللحم ، وأصبحا من النباتيين !

وفي ليلة من ليالى الأعياد، التي تشرب فيها دبلن الخمر غير مزوجة بالماء ، رأى شلى وهارييت مواكب الجائعين ، واقفين صفوفاً ، يتفرجون على حفلة راقصة فى قصر الحكومة ، وهم يعجبون بالملابس الزاهية والحلى الغالية . . فسخط شلى ، وقنط من هذا النقص فى الإحساس بالكرامة . .

كانت إيرلندا الجائعة عنده شبيهة بامرأة جميلة معذبة . . وهو مستعد للنضال فى سبيلها ، ومعاناة العذاب من أجلها ! . . فسارت وراءه فى الطرقات جماهير زرية الهيئة ، مهلهلة الثياب . فقبض عليه الجنود ، وجلدوه . وكأن فلسفته الروحانية الرحيمة هذه قد وفقت بين الأمتين المتعاديتين . . فرأى أن الجزيرة الشقية تضحك راضية بشقائها ! . فإذا يسعه إزاء هذا ؟ وماذا يرجو ؟ . . لقد سأل جودوين رأيه ، فنصحه بالعودة تجنباً لإراقة الدماء . . إذ لم يؤن الأوان بعد لتحقيق مشروع شامل كامل لخير الإنسانية جمعاء ! .. فرضخ آخر الأمر لحكم «صديقه الموقر» وكرروا الدعوة إلى المعلمة مس هتشنر لتجىء فتسكن معهم . فتباهت بالدعوة ، وحدثت البلدة عنها . . فلما عرف أبوها نهرها ، وحال دون سفرها ، فدهش شلى مرة أخرى من شرور الناس . . أهو ، الذى خطف امرأته وتزوج بها زواج حب ، يحىء الآن فيخونها ؟ لقد اشمأز من هذه الفكرة

الحسيسة ، واستنكف أن تدور في رؤوس البشر ! . .
 وكان المستر هتشنر - الأب - هو أيضاً صاحب حان
 سابق ! . . فكأن « الآلهة » قد أرادت أن تحشد في حياة شللى
 الشاعر الشفاف : نقابة الخمارين ! . .

ثم آن لشللى أن يغادر بلاد الغال ، وأشار عليه جودوين
 ببيت صغير لم يعجبه ، ولكنه اكتشف قرية سحرية راقدة في
 أحضان الزهور والأغصان ، حمراء السقوف ، تسمى :
 « لينموث » . . وعثر فيها على بيت للإيجار ، تشرف نوافذه
 على البحر . . فاعتزم سكناه « مدى الحياة » ! . .

ولم يلبث بيت « لينموث » الجميل أن تأهب ، واستعد
 لحادث سعيد ، هو وصول مس هتشنر ، فقد ارتضت أخيراً أن
 تجيء للسكنى معهم ، لتدخل في حياة شللى لوناً من التعاون
 الفكرى ، والتآزر الروحى ، لا يجده في زوجته الفتية ، التى هى
 أيضاً فى حاجة إلى أن تتلقن من « أختها فى الروح » هذه ثقافة
 تكونها !

ولم يلبث أهل « لينموث » أن رأوا ، مندeshين ، أصحابهم
 شللى يقوم ، مع تلك العجفاء الهزيلة المجهولة ، بنزهات خلوية ،
 طويلة !

- ١٤ -

ذبلت ورود القرية الجميلة .. وهبت رياح الخريف ، ورأى
شلى أن حلمه يتبدد ، ورؤياه تبخر ، وتكشفت له مس
هتشنر عما كان خافياً عليه من غليظ الطباع .. ففقد فيها
بطلته و « شقيقة روحه » .. ففرع سن الندم !

وبعد كل الذى كان منه من إلحاح وإلحاف لخلعها من
مدرستها صار من الصعب الاقتراق عنها وردّها على أعقابها ..
بيد أن المقام كذلك معها أصبح ثقيلاً لا يطاق .. واستحث
جودوين شلى وأسرته على الرجوع إلى لندن .. فقرروا
السفر إليها ، والبقاء فيها طويلاً

وذاث يوم من أكتوبر ١٨١٢ زار شلى وهارييت لأول مرة
جودوين وأسرته .. وعند ما وصلا وجدا الأسرة بكاملها مجتمعّة
فى البيت الصغير المتصل بمكتبة شارع سكنر . وكان آل
جودوين نافدى الصبر تطلعاً لوصول الزوجين الشابين . فهناك
الفيلسوف « الصديق الموقر » جودوين : قصير ، سمين ،
أصلع ، يتجلى ذكاؤه ، كما لو كان قساً . ثم مسز جودوين ،
فى ثوب جميل من حرير أسود ، ونظارات خضراء ، لترى جلياً
هذا الولد النبيل ، وارث اللوردية ، وزوج الفتاة الحسنة .. وكان

شلى قد أنذر ، من قبل ، بأنها امرأة سليطة اللسان . ولكنها بدت فى ذلك المساء رقيقة الحاشية . ثم « فانى » الفتاة الساهمة فى شجن وحلاوة . ثم « جين » الشائقة ذات الطابع الإيطالى ، سمراء اللون ، يقظة الدهن . . . وقال جودوين :

— لا ينقص الأسرة إلا ابنتى « مارى » ، وهى الآن فى أسكتلندا . وهى أشبه ما تكون بأُمها التى ستريان الآن صورتها وقادهما إلى مكتبه . . ونظر شلى باهتمام وتأثر إلى صورة الفاتنة مارى ولستونكرافت . ثم طفق شلى وجودوين يتحدثان فى : المادة والروح ، والأدب الألمانى ... والنساء يسمعن معجبات . ورأت هارييت شَبهاً بين جودوين وسقراط ، وإلى جانبه شلى كأنه أحد مريدى ذلك الفيلسوف الأغرقي القديم ! ونشأت مودة وثيقة بين آل شلى وآل جودوين . وكثيراً ما كان جودوين يمر بالفندق ، ويصحب شلى فى نزهة ، أو تدعو مسز جودوين شلى وهارييت إلى العشاء ، وقد تدعو معهما إليز ومس هتشنر ، وقد تجازف هارييت ، من جانبها فتدعوهم ، هى أيضاً ، إلى العشاء !

وفى مساء عيد ٥ نوفمبر كان شلى وزوجه يتعشيان عند جودوين . وبعد العشاء استأذن الصغير « وليم جودوين » ، وكان فى التاسعة من عمره ، ليذهب إلى جاره الصبى « نيوتن »

ليشعلا الصوارىخ . وكان شلى فى تلك اللحظة يناقش « صديقه
الموقر » فى إحدى المسائل العويصة ، فأيقظت كلمة « صوارىخ »
الكىماوى الخفى فيه ، فقال للصبي الصغير : « إنى ذاهب معك »
وبعد ما انتهت الصوارىخ دعاه الصبي نيوتن إلى والديه .
فانساق معه شلى فوجدهما مدهشين . ولم تلبث أن جرت
محادثة علمية شائقة بينه وبين المستر نيوتن . وهو رجل له
نظرياتة التى يطبقها عملياً . وكان متحمساً لفكرة : « أن
المخلوقات البشرية ، عند ما غادرت المناطق الاستوائية الحارة ،
التى عاشت فيها بادئ ذى بدء ، وصعدت نحو الشمال ،
اتخذت عادات مخالفة للطبيعة ، هى التى سببت كل أوجاع
الإنسانية . ومن هذه العادات السيئة لبس الثياب ! » . ولذلك
كان أبناؤه يروحون ويحيثون فى البيت وهم دائماً عرايا ! . .
وكذلك كان من العادات السيئة عنده أكل اللحم ، وأسرته كلها
نباتية تعيش على الخضر والفاكهة . ومنذ راعت هذا النظام فى
معيشتها لم تلجأ إلى طبيب ، ولم تحتاج إلى دواء .. وكثيراً ما كان
شلى يلقي البنات الصغيرات عاريات الأجسام ، يصلحن نماذج
كاملة لصنع التماثيل . . وما كان هذا كله إلا ليفتن شلى ،
ويجعله من الزوار المواظبين ، فلا يكاد يحضر حتى يخف
الخمس الأحداث متسابقين إلى لقائه ، ولم يكن نجاحه لدى

أهمهم وخالتهم مدام دى بوانفيل دون ذلك . . .
 وفى أسرة جودوين كانت « فاني » و « جين » تقضيان
 السهرات الطويلة تصغيان إليه بانجذاب ، فى إعجاب بحاله ،
 وبقوة حجته . . وصار له فى هذه الأسرة نفوذ لا يطاول .
 وكان يقضى بين « فاني » الناعمة الخجول و « جين » المتوقدة
 الحارة الدماء أجمل سهراته ، يمتزج فيها الفكر بالاشتهاء .
 وكأتما عاد مرة أخرى إلى الليالى الجميلة ، التى كان فيها محوطاً
 بالأخوات وبنات الأعمام والعمات ، كما يحيط النحل بالقفير ...
 أما هارييت فقد كانت عندهن دونه نجاحاً . ولم تلبث
 فاني وجين أن حكمتا بأنها فتاة محدودة ، وقالتا « مسكين شلى
 العزيز ! . . فليست له الزوجة التى تنبغى . . . »

وهو شعور طبيعى يخالج الفتيات إزاء الرجل الذى هو ملك
 غيرهن وكن يتمنينه لأنفسهن . بل لقد أشعرنه يوماً ، بأساوب
 ونخز الإبر ، أنهن لا يرين فيها إلا « سيدة جميلة » وحسب . .
 فاستنكر ذلك منهن . غير أن ونخز الإبر سيدى قلب شلى مع
 الأيام ، وينبه ذهنه إلى أشياء لم يكن يلقى بالا إليها !

بعد ما ظل هج منفياً عاماً كاملاً فى يورك اصطلاح مع

أهله ، وعاد إلى لندن ، لإتمام دراسة القانون . وبينما كان يقرأ
بهدهوء ، ذات مساء ، فتح باب الغرفة ، فإذا شلى ، بلا قبعة ،
وصادر قميصه مفتوح ، وحشي المنظر ، نوراني التمجلى ،
أشبه بما كان دائماً : روحاً سماوياً علوياً ، نزل إلى هذه الأرض
عفواً أو خطأ

— أخذت عنوانك من أستاذك المحامى . . بعد لأى ! . .
ماذا فعلت طوال هذه السنة ؟ . . إننى عائد من إيرلندا ، حيث
عملت مستشاراً عن الإنسانية لدى الكاثوليك الإيرلنديين ! .
ثم قصدنا بلاد الغال البديعة . . هاربيت بخير . . وهى تتوقع
ولداً . . هل قرأت « بركللى » ؟ . . إنى فى هذه الآونة أطالع
« هلفتيوس » . . حصيف . . ولكنه جاف !

فجعل هج يتأمله بالإعجاب الحنون الساخر ، كما كان
يفعل من قبل . . ليس غير شلى الذى يذكر الفيلسوف
الفرنسى « هلفتيوس » منذ أول عبارة يوجهها إلى صديق غادره
منذ عام ، بعد كل ما كان بينهما من خصومة جارحة
وكان شلى سعيداً ، مندفعاً بفيض أفكاره ، يفتح الكتب ،
ويوجه الأسئلة دون أن ينتظر جواباً عليها ، وكأنما قد نسى تماماً
أن هج قد أراد يوماً أن يثلم عرضه ! . . وظل يتحدث حتى
ساعة متأخرة من الليل . . وعند انصرافه قال لهج :

— أرجو أن تجيء غداً للعشاء معنا ، فسوف تسر
 هاربيت برؤيتك . . واعذرنا لوجود مخلوقة كريهة معنا : مس
 هتشنر . . ولكنها راحلة عنا بعد يومين !

— مس هتشنر ؟ . . شقيقة روحك ؟ . .

— هي ! . . شقيقة روحي ! . . إنها دودة حقيرة تسعى ! .
 إننا نسميها « الشيطان الأسمر ! . . »

وجاء هج ، فاستقبلته هاربيت مغتبطة . وقد زاد ورد محياها
 نضرة ، وصارت أوفر شباباً وفتنة ، وصاحت :

— يا له من فراق ! . . ولكن لن نفترق بعد اليوم ، فقد
 جئنا للإقامة في لندن مدى العمر . .

وكانت إليزا جالسة في ركن ، صامتة ، مترفعة . فصافحت
 هج بأطراف أصابعها ، دون أن تنزل إلى مخاطبتها
 فقال هج في نفسه : « لم يتغير بعد شيء في هذا البيت . .
 فلا بد من أن ألزم فيه الحذر »

وفي تلك اللحظة دخل شللي باندافاع القذيفة . وبسطت
 مائدة العشاء . وبعد تناول الطعام همست إليزا أشياء في أذن
 هاربيت ، فودعت هج ، ودعته للعودة صباح الأحد :
 — سيكون ذلك يوم سفر « الشيطان الأسمر » ، ويكون
 الحديث محرراً . وأنت مرح ، فوجودك يؤدي لنا خدمة .

إنها امرأة فظيعة ، أرادت شلى على أن يتعلق بها . وادعت أنه يحبها فعلاً . . . وزعمت أنني لا أصلح إلا لخدمة البيت . . . وقد وعدا شلى بمئة جنيه معاشاً سنوياً ، على شرط أن تذهب عنا إلى حيث ألفت ! . . .

وكان شلى يدرك جسامته التضحية برقع دخله على هذه الصورة . ولكن لا بد مما ليس منه بد . فهذه الفتاة قد أضاعت بسببه وظيفتها ، قال :

— الواقع أنها مخلوقة شنيعة ، وما دهشت قط من سقم ذوق إلا بعد ما قضيت أربعة أشهر معها . . . والأدهى من ذلك أنها تنظم شعراً ! . . . وضعت مراثاة في حقوق المرأة ، بدأتها بقولها :
« الكل ، الكل رجال . . . والنساء كالأخرين . . . »
ثم انفجر ضاحكاً . . .

وفي صباح الأحد جاء هج حسب وعده . وبدت له مس هتشر مضجرة ، ولكنها غير مؤذية . . . وخرج شلى . . . واكتشفت هارييت في رأسها صدادعاً شديداً يقتضى الوحدة . وحكم على هج أن يخرج ليتنزه مع « الإليزاتين » ! . . . وساروا نحو حديقة سان جيمس

وقصرت مس هتشر حديثها على هج . وناقشته في حقوق المرأة . ولزمت إليزا الصمت . . . وعندما وصلوا إلى البيت قالت لهج :

— كيف استطعت أن تتحدث طوال هذا الوقت مع هذه المرأة الشريرة ؟ . . . ولماذا شجعته على المضي في حديثها ؟ . إن هارييت عند ما تعلم بالأمر ستغضب منك ، وتستاء كثيراً ! وبعد الغداء وجه هذا الرجل الحبيث الحديث إلى حقوق المرأة ، وأطلق البطلة المسترجلة من عقالها . فوقف شلى إلى جانبها يناقش بحدة . ونظرت إليه الشقيقتان بحزن وجزع ، كما لو كان مذنباً أثمًا لاتصاله بالعدو .. وهمست إلينزا في أذن هج : — آه ، لو علمت كم هي قدرة لما دنوت منها ! . . .

غير أن ساعة الخلاص جاءت ، فحملوها وصناديقها على عربة إلى منفأها !

— ١٦ —

كانت الشهور القليلة التي تلت رحيل مس هتشر من شهور السعادة . وكان شلى وزوجه ما زالا فقيرين ، جوآني آفاق ، ولكن رضاء داخلياً عظيماً قد حل عندهما محل الغنى والبيت والحصى . . . فقد بدأ شلى نظم ملحمة كبرى بعنوان « Queen Map » . وجعله العمل فيها يستشعر أن الحياة ما زالت خليقة بأن يحياها الإنسان . وكانت هارييت حاملاً . وغمرها استرخاء لذيذ ، شبيه بالخدَر ، جعلها تستبقي كل قواها لعملية

الخلق ، ولا تشعر بالضجر لجمود حركتها ، مادام في باطنها ، يعزيبها ، نشاطُ التكوين ، الذي لا يلبث أن يتمخض بالولد وأقاما خلال هذا الطور مدداً قصيرة في بلاد الغال وفي إيرلندا . وبدأت هارييت تدرس اللاتينية ، مرضاة لزوجها . وكان يدرسها لها على طريقته ، بلا أجرومية ، ماضياً بها رأساً في مطالعة « هوراس » و « فرجيل » . . . وكان في خلال ذلك أيضاً ينظم ملحمة ، أو يقرأ كتب التاريخ . فقد قال له جودوين إن جهله بالتاريخ هو من أعظم أسباب أخطائه في الحكم على الأشياء . وفي المساء تغنى هارييت ، أو يطلعان معاً الصحف ، ويتبعان أخبار المحكوم عليهم من الكتاب الأحرار الذين كان شلى يكتب إليهم ، دون أن يعرفهم ، يعرض عليهم أن يدفع عنهم الغرامات المحكوم بها عليهم بسبب آرائهم ، وكان لذلك يستدين بأرباح فاحشة ، تبلغ أحياناً أربعمئة في المئة !

وأتت العودة إلى لندن ، إذ حان وضع هارييت ، وكذلك بلوغ شلى سن الحادية والعشرين ، وهو تاريخ غاية في الأهمية بالنسبة له ، إذ يحدد علاقاته بأبيه

وسكننا فندق كوك ، في غرفة ذات شرفة مطلّة على شارع ألبمارل . وكانت إليزا تنفي بشقيقتها وتدرس لأختها سياسة الزوجية : — من عجب ألا يستطيع زوجك أن يجد سبيلاً إلى الصلح

مع أبيه ، حتى تستقبلك أسرته ، وتأخذى فى أسباب الحياة اللائقة بقرينة « البارون » الشاب ! . . . ولو أنك كنت أكثر مما أنت فطنة وإقناعاً لكان لك شأن آخر ! . وأنت لا تلبثين أن تنجبي ولداً . وهذه الحياة المزعومة أصبحت مستحيلة لا تطاق ، فلا غنى لك عن بيت فى لندن ، فراشه وثير ، وخيره كثير ، وأوانيهِ من فضة ، وبالباب مركبتك . . هذا كله وأكثر منه يمكن أن يكون لو أراد شلى . . .

وتأثرت هاربيت بهذه الأقوال ، وآمنت . فقد كانت امرأة ساحرة الجمال ، وكانت تعرف ذلك ، والمرأة الجميلة تعد الحياة بلا ترف صعبة لا تحتمل ، كما يعد الرجل الذكى نفسه مغبوناً فى وظيفة حقيرة . . . وكانت نظرات المارة التى تتعلق بها تحدثها عن مدى سلطانها . وكانت تعلم جيداً أن هذا السلطان سريع الزوال ، ينقضى بانقضاء الشباب والجمال . . ومثل الأمة المسلحة تسليحاً قوياً ، تريد أن تكفل لنفسها مكانتها تحت الشمس ، قبلما تسرح جيوشها : مثل المرأة المسلحة بجملها ، تريد أن تغزو عدوها الرجل ، أو توطد علاقاتها به ، قبلما تدممها الشيخوخة . وظلت هاربيت ، ومن ورائها إليزا تنفخ فيها من روح التمرد والتمرم ، تلح على شلى ، حتى قرر محاولة التقرب ، من جديد ، من أبيه . وكان كذلك فى شوق لرؤية

أمه ، فكتب إلى والده يعترف بحماقاته ، ويرجو أن تعود الصلات بينهما بثقة تامة ، ولم ينس أن يضمن رسالته تحيات قريبته
فاشترط أبوه لذلك أن يكتب شلى إلى جامعة أكسفورد
أسفًا لحدوث ما حدث منه ويعدّها بأن يكون باراً بالكنيسة
فاشتكى شلى والده إلى اللوق دى نورفولك . ولكن
إليزا عدت هذا العناد منه بخيفاً :

— وعلى ذلك فإن هارييت ، وهى تكاد تضع ، لا تجد
حتى مركبة توفر عليها الجرى فى شوارع لندن على القدمين ؟ . .
فاستشاط شلى غيظاً ، واشترى عربة بالدين ، وأبى
استخدامها ، فقد كان يؤثر التزهات الطويلة مشياً فى شوارع
لندن يتحدث مع هج . . وكان عندما يضيق بإليزا يلجأ إلى
بيت جودوين حيث « فاني » و « جين » تستقبلانه بأذرع
مفتوحة ، أو بيت نيوتن حيث الحنان والذكاء والرقّة وحسن
المعاشرة ، تسمعه مسرّ نيوتن أنغامها الشجية على البيانو ،
وهو جالس على البساط مع أولادها الذين زهّاهم الحسن ، يروى
لهم حكايات الأطياف والأشباح . وتعجىء أختها مدام دى
بوانفيل ، وكان شلى يميل إليها ، فقد اجتمعت فيها وأختها
استنارة الذهن ودمائة الطبع ، وهذا فى المرأة خلاصة الحضارة . .
ومن ثم وجد فى بيتيها أقصى ما يتمناه من هناء الروح . وكانتا

تقولان عنه : « أى شىء أبدع وأروع من قديس فى ثياب رجل
المجتمع الراقى ؟ ! »

وكان هج يغبط صديقه شلى على مناورات كل هؤلاء
النسوة الفاتنات الذكيات من حوله ، وانكباهن هكذا عليه ،
ولاحظتهن به ، ينازعن فيه فتيات جودوين ، ويزاحمنه عليه !
وقد يمضى الليل وشلى يتحدث بحمية ، وكأنما هو الإله
الجميل « أدونيس » ، المحوط بالعذارى المسحورات ، والكاهنات
العابدات ، والنساء الفاتنات . . وقد يطلع الفجر عليه وهو
ما زال يحاورهن . . ولا ينتهى الحوار بالنوم ، بل ينتهى هذا
الحديث فى الليل بنزهة خلوية ، تحت ندى الصباح . . .

وكان هج يتساءل : ماذا كان يقول طوال ليله فى نادى
الجمال ؟ . . إن شللى نفسه ليس يدري ! .

وكذلك كانت هارييت تتساءل عما يمكن أن يقوله زوجها
لكل هؤلاء النساء . . وكانت على وشك الوضع ، فهى لا تخرج
مطلقاً . .

وضعت هارييت طفلة ذات عينين زرقاوين وشعر من
ذهب . فدعاها أبوها « إيانثا : Iantha » ، تكريماً لذكرى

«أوفيد» شاعر اللاتين القديم . وأضافت أمها إلى الاسم :
«إليزا» ، تكريماً لأختها

وكان شللى يدور بالطفلة على ذراعيه ، وهو يهزها ، ويغنى لها من أشعاره ! وكان قد طاب نفساً ، وقرّ عيناً . بأن يربى مخلوقاً جديداً على مبادئه ، فينقذه ، منذ نعومة أظفاره ، من الأحكام المتسرة والتعصب . وكان — وهو المعجب بجان چاك روسو — يظن أن هارييت سترضع بنفسها طفلها . بيد أن هارييت ، وأختها من ورأها تحرضها ، قد رفضت لإرضاع بنتها . فاكترت مرضعاً لتتولى ذلك عنها ، وتغيرت الأم ، على وجه غريب ، منذ مولد «إيانا» . فانقطعت عن دراسة اللاتينية . . ولم تعد ترغب فى غير التنزه والوقوف أمام واجهات الأزياء والجوهر . . وكان شللى لا يغتفر مثل هذا التهاوت . وكان على استعداد ليدفع تكاليف كل النزوات «المعقولة» لامراته ، أما المال «الضرورى جداً» ! لإعانة الكتاب الأحرار المضطهدين ، وغير ذلك من الوجوه الحققة ، فإن إنفاقه فى خرق ثياب وشرائط برانيط أمر أشد ما يكون خزيّاً !

وعندئذ عنيت إليزا بتفسير مشاعر شللى لهارييت :

— إن زوجك يجد المال ليدفع ديون صاحبه جودوين الذى تستقبلنا زوجته شر استقبال . . ثم يجد المال ليدفع غرامات كل

كويكب « صعلوك » .. ولكنه لا يجد مالا لتلبس امرأته ثوباً على جسمها ، وقبعة على رأسها ! .. وإذا كنت لا تلبسين الآن وتظهرين ، فى الثامنة عشرة ، فتى تفعلين ؟ ..

وشجعت إليزا على التردد على البيت ضابطاً فى الجيش يدعى : « الكابتن ريان » ، تعرفوا به فى إيرلندا ، وكان يرى أن شابة شائقة مثل هارييت جديرة بحياة مرفهة . وكانت هارييت مستعدة للمصادقة على رأيه . ترى أنها ، إذ تتردد على محال البيع والشراء ، تلبى ميلها وطبعها ، كما يلبي شلى أهواءه بالمكث الطويل فى بيت « نيوتن - بوانفيل » !

ورأى شلى أن المقام فى لندن كان سبب الشر كله . فخالجته الفكرة التى تعرض عادة للمحبين إذا ما عكرو صفوهم شىء ما زال غامضاً ، وهى زيارة الأماكن التى شهدت ذروة الحب . وأعدت مركبة هارييت . واستلف شلى خمسمئة جنيه بتوقيع سند بألفين من الجنيهات تستحق الدفع من ميراثه . وسار الركب يحج إلى إدنبره ، وإليزا - التى لا مفر منها - على رأسه وعادوا أسعد مما سافروا . ولكن لم تكد تستقر بهم النوى ، حتى أصرت هارييت وإليزا على شقة جميلة ، وثياب فاخرة ، ومجتمعات راقية ! .. وشلى يمتقت هذه جميعاً ، ويمقت ، أكثر منها ، فكرة تعلق زوجته بها .. إنه ما زال يحبها ، غير أن سماء

حبه قد عبرتها لحات احتقار ، كومضات برق سريع خلّبت !
 وجاء هج لزيارتهم . فوجد هارييت أشد فتنة ونضرة .
 ولكنها لم تكن تعرض عليه أن تطالع له في كتب الفضيلة ، بل
 سألته أن يصحبها إلى صانعة قبعات ذائعة الصيت . . وهناك
 اختفت عندها ، تاركة هج ينتظر على الرصيف . فرأى أنها
 بدأت تكون مملّة ، فضاق بها . . ولم يخف ضيقه بها عن شلى ،
 الذى كان كذلك قد عيل صبره !
 وهكذا وصل الزوجان إلى منزل ق خطر !

• • •

عندما دعت مدام دى بوانفيل شلى وهج لقضاء بضعة
 أيام فى بيتها الخاوى فى « براكنل » لبيا بابتهاج . وهناك وجدنا بنتها
 « كورنيليا » ، الفتاة الجذابة ، المثقفة ، الحزينة . . كما وجدنا
 أختها « مسز نيوتن » . . وأخذت كورنيليا تعطينا دروسا فى
 اللغة الإيطالية . . وكانت أمها تفسر بصوتها النقى تعاليم
 الفلاسفة الفرنسيين السمحة ، وتردد كلمة « شمنفور » :
 « أن تستمتع بالحياة ، وأن تتمتع بها سواك ، دون أن تسىء إلى
 إنسان ، هذا هو الخلق المصنئ ! » . . وكانت هذه الكلمة
 خليقة بأن تثير استنكار شلى . . فالمسكينة هارييت لم تقل قط
 شيئا مخالفاً إلى هذا الحد للفضيلة

وكان من عادة كورنيليا أن تردد كل صباح أنشودة من أناشيد « بترارك » . . فإذا ما خرجت لتتمشى بين الشابين في الحديقة علّقت على نصوص الحب ، بفصاحة ، وبساطة ، قائلة :
 — ما أحسن أن يُسهل النهار بجرعة من الخنان ، تلطف كافة أفكارنا ، وأقوالنا ، وأفعالنا ، حتى يجيء الليل ! . .
 وطاب مقام شللى في هذا البيت البسيط البهيج ، ودعيت هاريت ، واستقبلتها مدام دى بوانفيل بعطف . وقالت لهج :
 — إنها إنسانة جميلة جداً ، وقد تلوح لى طائشة نوعاً ما ، غير كفء لمثل عزيزنا الفيلسوف اللذيد . . ولكن . . أليست في الثامنة عشرة تماماً ؟ . .

وأحست هاريت بأنهم لا يعاملونها معاملة الند للند . ورأت كيف يروق شللى أن يقرأ « بترارك » مع كورنيليا أكثر مما تروقه المناقشة مع زوجته في وسائل تحسين معيشتها . فأسرفت في المرح ، وعدم الاكتراث . ولما طففت الجماعة تجادل في الفضيلة جدالاً حاراً رآها شللى تتبادل البسمات الساخرة مع هج ، ومع بيكوك ، وهو صاحب جديد لهم ، سفسطائي متشكك . وما كان شللى ، إذا تسامح في تهكم هج ، ليتسامح في تهكم امرأته . فوجم وحزن . . وعزا ذلك منها إلى الصبائية . . وكانت غيرى من كورنيليا . فأبدى لها شللى فتوراً ، وعاملها بازدراء !

وعندئذ تسلمت بالكبرياء ، وانقلبت شراً مما كانت .
وقالت لنفسها : « إن إليزا على صواب . . فهو أنا ، يدعى
الكمال . . لأنه يحب هذه العيشة الكثيرة والمناقشات البليدة يريد
أن أحبها ؟ .. بأى حق يحول بينى وبين أن أستمتع بحياتى ؟ وفيم
تمتاز عني كورنيليا ، إذ تطالع له « بترارك » ؟ ! . إن هؤلاء
النسوة ، اللواتي يعجب بهن ، لسن في نضرة شباني ، ولا في جمال صورتي »
وأعلنت عزمها على العودة إلى لندن ، شوقاً إلى أختها إليزا . .
فلم يلحوا عليها بالبقاء . . وقالت نساء بوانفيل ما قالت من قبل
آنسات جودوين : « إن شللى المسكين ، ليست له المرأة الجديرة به ! »
وتعدت هارييت أن تتركه في « براكنل » . وتعيش في لندن
مع إليزا . . ولم يلبث شللى أن أخبره « الأصدقاء الخالصاء » بأن
هارييت كثيراً ما تشاهد بصحبة الماچور ريان . ولأول مرة ،
منذ زواجه ، لاح له أن الخيانة شئ محتمل الوقوع بالنسبة
لشخصه وشخص هارييت ، وطغى عليه عذاب الألم !
وكان العقل ينصحه بالخلاص من امرأة عادية جداً .
بدت نغمتها الوضيعة بما أظهرت من سخريه به ، وإذا لم يكن بعد
يحبها ، أو ليس الفراق هو أبسط الحلول ؟ أو لم يكن من رأيه
دائماً : أنه في اليوم الذي ينطفئ فيه الحب يسترد كل من
الزوجين حريته ؟ .

غير أنه اكتشف أن هارييت وستبروك ، وپرسى شلى ،
لم يعودا مخلوقين منفصلين حريين . فلأن ما كان بينهما من
ذكریات ومن متاعب وآلام ، قد ربطهما برباط خفي
فهرع إلى لندن يقدم إليها اعتذاراته ، ويعترف بأخطائه .
ولكنها تلقته بخشونة وسخرية ، فاستحالت بينهما كل مطارحة قلبية !
ومرت بشلى لحظات رأى فيها ، من وراء قناع الجفاء
والكبرياء الذى تقنعت به هارييت ، صورة سريعة عابرة من
هارييت السابقة ! . فراح يهيم على وجهه مفكراً : « كم كنت
مجنوناً ! .. فقد ربطت نفسى للأبد بامرأة لا تحبني ، وهى لم
تحبني قط من قبل . إنها لم تتزوجني إلا طمعاً فى ثروتي واسمى ..
أما وقد رأت أن آمالها خابت فقد انقلبت تعاقبني على غلطها ،
وتنال مني .. » .. وكرر لنفسه باشمئزاز : « قلب من ثلج ...
لوح من ثلج ! .. »

لو أنه لقيها وحدها لأذاب ثلجها ، ورد إليها حرارة قلبها .
ولكن إلينزا كانت واقفة دائماً بينهما ، والماجور ريان ، الكييس
الكریم ، مستعد لأن يرق حيث يقسو الزوج !

فلما رأى شلى أن هارييت ممعنة فى صلابتها وعنادها سقط
فى يده ، وكتب إلى أصحابه فى براكنل يعلن حضوره لقضاء
شهر عندهم من دونها .. وكان يعلم أن هذه الفترة الممتعة

ستعقبها نكبة قارعة ، لا بد واقعة . . ولكنه كان من الضنى
والكلال بحيث ألقى السلاح !

— ١٨ —

وتمر أيام على شلى ، يتذكر فيها الحياء الطفل الجميل ،
الذى وهبه الله لزوجته ، فحاول ، فى قصيدة حزينة تثير
الشجون ، أن يطلعها على مبلغ شقاوة ذاك الذى عاش تحت
شمس نظراتها الحارة ، كيف لا يجد بعد إلا الفناء تحت
طبقات الجليد ، التى راكمها فوقه صدودها !

ولكنها زادت بعداً على بعد ، وصدأ على صد ، وأمعنت
فى تعاليها وكبرياتها ، وما كاد يعود إلى لندن حتى غادرتها إلى
بلدة « باث » !

وكان شلى مضطراً إلى الإقامة فى المدينة . فقد بلغ سن
الرشد ، وأنذره محاميه بأن أسرته قد ترفع عليه الدعوى لتجريد
من حقوقه . ومع أنه كان مغرقاً بالديون فقد أصر على
تخليص جودوين من ديونه بعد أن فشلت مكتبته ، وكان يلزم
لإنقاذه ثلاثة آلاف من الجنيهات الإنجليزية ! . .

فما كاد جودوين يعرف ذلك حتى تهافت على تلميذه
الذى أصبح « أعزب » فى لندن ، و « نصفه الأفضل » فى

الريف إلى أجل غير مسمى . . فصار يدعوه للعشاء كل ليلة
 وكان شلى يتقبل الدعوة لكي يرى البنات . . . وقد أخبره
 جودوين أنه سيلقى « ماري » التي عادت من أسكتلندا ، ورسمها
 له في صورة جميلة : سبعة عشر ربيعاً ، روح حي جذاب ،
 وعقل مستنير ، وخفة ، ورشاقة ، وهمة ، ورغبة شديدة في
 المعرفة ، ومثابرة لا حد لها . . وكانت « فاني » و « جين » قد
 سبقتا فوصفتها له بأنها لا يعدل ذكاءها إلا جمالها . وكان
 قد سبق له الاطلاع على أدب أمها « ماري وولستونكرافت » ،
 وحمل لها أشد الإعجاب

كان في حاجة إلى أن يجسد في شكل امرأة جميلة : القوى
 الخفية الخيرة ، التي يتخيلها مبعثرة مثورة في أرجاء الكون . . .
 وكان الحب ، عنده ، إعجاباً هائماً ، وإيماناً وطيداً ، ومزيجاً
 شائقاً كاملاً من الاشتهاء ، ومن الفكر والذكاء . . .

وكانت ماري هي التي ينتظرها . . فتقرر مصيره
 كان المحيياً نقيماً ، شفافاً ، في شحوب . . والشعري يتدلى على
 جانبيه ، في غدائر ناعمة ، كسبائك ملتوية من ذهب . .
 والحبين مرفوع . . والعينان بلون البندق ، جادتان في حنان . .
 وهناك الذكاء الثاقب ، والإحساس المرهف ، والبسالة الخزينة
 فأوحت إليه ، ونفخت فيه

قال لنفسه وهو يصغى بانجذاب إلى صوتها الفتى الشجى :
 « يا للجد ، ويا للحس ! . . . » فتاة ، هي تحفة الفن العليا
 وود لو أسرع فحملها بعيداً ، مخلقاً بها ، على جناحيه ،
 إلى مملكة سحرية غريبة ، فيما وراء الطبيعة ! . .

ما أبعد مارى هذه عن هارييت ، تلك التى لم تعرف كيف
 تحقق له هذا المثال ، الذى يؤلف بين العقل والجمال . . ولم
 تستطع اجتياز امتحان الزمان العسير . . فكانت مدللة ، طائشة ،
 بارعة فى مكائده النساء !

أما مارى ففرقة ، مرهفة ، ماضية حادة كالسيف المهند
 المصقول . . رباها مؤلف « العدل السياسى » . . فتحرر عقلها
 من خرافات النساء

وكان شلى يقضى الساعات يتأمل . . .

وكانت على استعداد لأن تحبه . فالتحضير الرومانتيكى
 لحياتها قد قامت به أخواتها اللواتى ظللن شهراً كاملاً لا يحدن
 فى رسائلهن إلا عن شاعرهن الجميل . . وها هى ذى ترى أن
 الخبر يفوق الخبر . ومع أنه لم يكن يشكو فقد أحست حزنه !
 وذات مساء حدثته بشجونها . فهى تعبد أباها ، ولكنها
 تمقت زوجته . والمكان الوحيد الذى تستريح إليه هو قبر أمها ،
 تذهب إليه كل يوم تطالع عنده ، وتتأمل . .

ومرة أخرى ، بعد خمس سنوات ، رأى شلى نفسه جاثياً فى مقبرة إلى جانب عذراء جادة مولعة . . . وهكذا تجسّد معبوده ، مرة أخرى ، فى شكل امرأة! .. لكنه لم يعد حراً . لقد كان متروجاً ! ولا مرء فى أن الزواج ليس إلا عرفاً ، فمن لم يعد يحب فلينطلق من إيساره . وهو لم يعيد هارييت بشىء غير هذا . وهو يظنها صارت خليلّة للماچور ريان ، فهو لا يتحرّج من شىء إزاءها ! غير أن زواجه كان شرعاً لا يمكن التحلل منه . . فهاذا عنده ليقدمه إلى مارى ؟ . . أفى مقدوره أن يرضى لها ذلك الوجود المستهجن ، الذى لم يشأ أن يفرضه على حبيبته الأولى ؟

على أن حباً متبادلاً ، ولو كان بلا رجاء ، هو خير من : الشك ، والوحدة ، والحرمان . فكاشف مارى بحقيقة حياته الزوجية ، فوصف لها ما أصابه من الحيبة الروحية فيها . وكان بحاجة إلى رقيقة تشعر بالشعر ، وتذكر حكمة الحكماء . . وما كانت هارييت لتستطيع هذا ولا ذاك !

وأهدى إلى مارى نسخة من ديوانه . وكان الديوان مهدي إلى هارييت « ملهمة هذه الأغاني » . . فكتب تحت هذا : « كان الرجل يوشك أن يتزوج امرأة ، لم تنجذب نحوه إلا من أجل ثروته ، فبرهنت على أنانيتها ، بالتخلي عنه ، وهجره فى سجنه » ولما عادت مارى ، واختلت بنفسها ، أضافت :

«... لا أستطيع أن أكون لك ، ولن أستطيع أن أكون لسواك ولكنى لك وحدك ، لا شريك لك : بالقبلة الصامتة ، والنظرة المختلسة ، وبالاتسامة التى تراها ولا يراها الناس . إننى وهبتك نفسى .. والعطاء مقدس » ...

هذه النظرات التى لا يراها أحد ، وهذه الابتسامات التى لا يفهمها أحد ، قد رآها جودوين ، وفهمها .. وأخذته القلق ! فطلب إلى ابنته أن تكف عن لقاء شلى . وكتب إليه ينصحه بأن يصالح زوجته ، وسأله أن يكف عن زيارته !

كان هذا عاملاً على استعجال الحوادث .. فقرر شلى ، الهائم بمارى ، المحروم منها ، أن يضع لذلك حداً . وكان رغم تأكيدات صاحبيه بيكوك وهج يصر على أن هارييت مذنبه ! قال لنفسه : « إن شيئاً واحداً يهمها : المال ... وسأكفل من هذه الوجهة مستقبلها .. وتسترد حريتها » ! ..

ودعاها إلى لندن وأخبرها بنية فى هدوء وعطف . وكانت مريضة فى حمل للأربعة أشهر ، فضاعفت الصدمة مرضها ، واشتد الخطر عليها .. فسهر شلى على معالجتها ، وتفانى فى خدمتها ، فزادت شقاء

وما كادت تمالك حتى استأنف حاجته التى لا تلين :
— إن اتحاد الجنسين مقدس ، طالما هو يشمل الزوجين

بالهناء ، وهو ينحل طبعاً من تلقاء نفسه ، بمجرد ما يزيد ضرره على نفعه !

فضاقت الدنيا بهارييت ، ولم يكن لها بد من جواب تجد به مخرجاً ، ولكنها لم تجد ما كان ينبغي أن تقوله .. فحلمت بأنها تتخبط وسط جدران عالية غير منظورة ، مطبقة عليها ، كمن يتخبطه الشيطان من المس ..

وتخطت على ماري . إنها هي السبب في هذا كله ، أخذت شللى من زوجته ، واستغلت تعلقه بالخيال ، واستخدمت ذكرى أمها في لعبة شائنة !

ولم تشعر ماري بذرة من الشفقة على هارييت . فصورتها في أبشع صورة : « إن امرأة كان من سعداها أن اقترنت بشللى ، فتصّرت في إسعاده ، لا يمكن أن تكون إلا مخلوقة أنانية ، طائشة ، خاملة » . وكانت تعلم أن شللى سيعامل هارييت بسخاء وأنه سيصدر أمراً إلى وكيله ليدفع لها أكبر نصيب من معاشه ، وهو ما يريح ضميرها .. وقالت : « سيكون لها المال ، وهو كل ما يعينها »

وكان شللى في حالة يرثى لها من الهياج العصبى . إن نوعاً من العبث العاطفى قد أثار في نفسه مشاعر متضاربة . فلما رأى هارييت تسقط في هوة من اليأس والتقنوط لم يستطع أن ينسى

يوم كانت رضىة ممتعة . ولكنه لم يكده يعود فيلقى مارى حتى عبد
منها : لطفها ، ورقتها ، وجدتها . . ولكى يهاى من ثائرتها
ساعة أو بعض ساعة تعاطى خلاصة الأفيون ، وزاد فى تعاطيها
يوماً عن يوم . . وأظهر صاحبه ييكوك على الزجاجة قائلاً :
« إنها لا تفارقنى أبداً »

وكان يردد بلا انقطاع قول سوفوكليس : « يا ليتنى ما
وجدت فى هذه الدنيا ، ولا اكتحلت عيناي بنورها ، إذن
لكنت أكون من المسعدين . . أما وقد طلع على النهار ، فما
أحرانى بأن أعود من حيث جئت . . لا ألوى على شيء . . »

أوصى شلى بعربة السفر للساعة الرابعة صباحاً . وظل ساهراً
 متربصاً ، سواد الليل كله ، أمام بيت جودوين . وأخيراً فتحت
 ماري الباب الخارجى ، قليلاً ، بلا صوت ، وهى فى ثياب
 السفر . وكانت أختها « جين » تتحدث معها بصوت منخفض
 مشرفة على الحقائق باهتمام !

وتعبت ماري من السفر المتواصل الطويل ، غير أن شلى
 لم يجزؤ على التوقف ، خشية أن يكون جودوين فى أعقابهم .
 ثم بلغوا فى نحو الساعة الرابعة مساء ميناء دوفر ، وعبروا المانش
 إلى كاليه فى مركب صغير

وكان مساء جميل . ورأى الهاربون أنهم نجوا ، وصاروا
 فى أمان . وكانت ماري قد اشتد بها المرض ، فقضت الليل
 مضطجعة على ركبتي شلى ، يسند رأسها على كتفه ، ويعنى بها
 جهده . وغاب القمر وساد الظلام التام ، فانطلقت زوبعة
 هوجاء ، كان برقها الراعد يضرب بالسياط وجه البحر الأسود
 الماء ، فتثور مياهه ، وتنتفخ ، وتنفور . وأخيراً بزغ النهار ،

وصحبا الجو، وطاب الهواء، وطلعت الشمس وردية شقراء على فرنسا
وانتعشت ماري من سباتها، وقضوا يومهم في خان، حتى
وصلت سفينة بريد دوفر حاملة حقائبهم وحاملة معها أيضاً مسر
جودوين، جاءت لتتقنع ابنها «جين كليرمون»، على الأقل،
بالعودة معها. غير أن فصاحة شلى فازت بها. وعادت مسر
جودوين وحدها

وفي الساعة السادسة غادر المسافرون كاليه إلى بولونى في
مركبة تجرها ثلاثة خيول، تجرى خيباً...
وكانت خططهم تقضى بالذهاب إلى سويسرا، ولكن
بضعة أيام في باريس أتت على ما في كيس نقودهم. وكان
معهم خطاب لرجل أشغال فرنسى، يدعى «تافرنيه»،
ليحصل لهم على مال. ورهن شلى ساعته وسلسلتها لقاء ثمانية
بنتوات ذهبية، كفلت لهم الطعام خبزاً وجبناً خمسة عشر يوماً،
وفي آخر الأسبوع قبل تافرنيه أن يقرضهم ألفاً ومئتين فرنك،
وهو دون ما يكفى نفقات السفر في مركبة البريد، فقرروا
الرحيل على الأقدام، وشراء حمار لحمل العفش وركوب ماري.
فذهب شلى إلى سوق البهائم، وعاد إلى الفندق يجحش صغير.
وفي الصباح التالى استقلوا عربة إلى أبواب شارنتون على الحدود،
والجحش يتخبط سعياً وراء العربة!

وبعد بضعة أميال تعثر الجحش من التعب ، فاضطر
 شلى وجين إلى حمله ! . . وفي القرية التي باتوا فيها باعوه إلى
 فلاح ، واشتروا بدلا منه بغلة ! . وكانت آثار الحرب والدمار
 بادية على البلاد ، فالقرى خربة ، والبيوت بلا سقوف ،
 والجدران المهدامة سودها دخان النار ، وكانت الأسرة في التزل
 الحقيبة قدرة ، والفئران الهائلة تصول وتجول حوطم في الظلام .
 فاختاروا النوم في مطابخ القرويات !
 وتساءلت ماري بقلق عما يمكن أن يكون قد أصاب أباهما
 ألماً من هربها . .

وكان شلى مشغول البال على مصير هارييت ، فكتب إليها
 خطاباً طويلاً يسألها أن تلحق بهم في سويسرا لتسكن بقرهم ! .
 وستجد فيه على القليل صديقاً لا تشوبه من الأنانية شائبة .
 ورأى من الطبيعي أن يطمئنها على صحة ماري !
 ولم ترد هارييت على الخطاب

ووصلوا من نيوشاتل إلى منطقة البحيرات . وأراد شلى
 الاستقرار في « برونن » قرب معبد غليوم تل ، المدافع عن
 الحرية . وكان البيت الوحيد الخالي هناك : قصراً عتيقاً مهجوراً
 كالظلل البالي ، فاستأجروا فيه غرفتين لستة أشهر ، واشتروا
 أسرة ، وكراسي ، ودواليب ، وموقداً . وبدأ شلى في يومه

قصة كبرى : « The Assassins » ، كأنه قد طاب
مقامه ، واستقرت أيامه ! . .

بيد أن الموقد الحديد لا يشتعل . والحجرة مثلجة ، ممتلئة
منه دخاناً . ومن الخارج المطر يضرب زجاج النوافذ بسياطه
الرفيعة . ووجدوا أنفسهم في وحدة موحشة . فذاكروا حديث
بيوتهم الإنجليزية الجميلة ، والشاي الإنجليزي الساخن الزكى ...
والجو الإنجليزي الملبد بالغيوم ، وهو مع ذلك لا يخترم برده
الصدور . . والرجال الإنجليز الذين يتكلمون بلسانهم ويعرفون
نطق أسمائهم .. حتى المرابون الإنجليز مجاملون ، وإن كانوا ينهبون
وأحصى شلى ما بقى لهم ، فلم يجد إلا ثمانية وعشرين جنيهاً !
— فلنعد إلى بلادنا ! . .

لم يكذ شلى يقول ذلك حتى قر قرارهم على الرحيل ،
وأحسوا بالفرح والمرح . وقالت جين :

— يا للمضحكات المبكيات : أهكذا نغادر ، بعد ثمان
وأربعين ساعة ، الغرف التى استأجرناها لسته شهور ، وأثنائها
بمالنا ! . . لقد زعمت إذ رأيت صفوف دوفر تباعد عنا ،
والشاطيء الإنجليزي يخفى ، أننى لن أعود فأرى من ذلك كله
شيئاً . . . والآن . . .

وفى الصباح التالى حملهم مركب إلى لوسرن . ومن لوسرن

بلغوا بال ، ثم كولونيا . وفي المساء غنى البحارة تحت ضوء
النجوم أغاني الهوى . . . وشلى يعمل فى قصته « السفاحون » ،
ومارى وجين ، كلتاهما تبدأ فى وضع قصة جديدة أيضاً !
ثم حملتهم مركبة البريد الهولندية إلى روتردام ، فوصلوها وليس فى
كيس نفودهم دائق واحد ! . . . وبعد مناقشات طويلة مع قبطان
إحدى السفن قبل أن يحملهم معه . . . وقطع شلى الرحلة بطولها
وهو يناقش أحد الركاب فى مسألة النخاسة والرقيق . وأيدته
مارى وجين وهما تجهلان تماماً ماذا تأكلان غداً ، وإن كانتا
تعلمان أن برسى شلى عبقرى ، وأن الإنسان حيوان ، ينشأ ،
ويتقدم ، ويرتقى . . . وقد يكمل ! . . .

— ٢٠ —

عندما وصلوا لندن لم تكن معهم أجرة العربة التى أقلتهم .
فاتجهوا بها إلى المصرف . وهناك علم شلى أن هاريت قد
سحبت رصيد حسابه ! . . . فذهبوا بالعربة لمقابلتها . . . فظنت أن
زوجها قد عاد إليها . . . ولكنها استنكرت وسخطت عندما علمت
بأن غريمته واقفة بالباب . . . ومع ذلك أقضت شلى بضعة
جنيهات ، مكنت الجوالين الثلاثة من سكنى بعض الغرف
المفروشة الحظيرة !

ورفضت أسرة جودوين استقبال العصاة الهاربين . وترافع شلى ، مدللاً بأنه إنما طبق مبادئ « العدل السياسى » . . ولكن ما كان هذا إلا ليزيد فى ثورة جودوين ونخطه فقد كان « العدل السياسى » عنده كتاباً نظرياً لا يمكن تطبيقه فى وسط مجتمع محافظ لا يرحم ، وفى ذات بيته ، وبين أفراد أسرته ، وفى أعز شخص لديه ، وأكثر من ذلك كله تحريف آرائه ، وقلب مبادئه . . لا ، ثم لا . . إنه لن يصفح عنهم أبداً ! كان شلى قد استدان مبالغ طائلة جداً ليقرضها لوالد ماري ، فما كاد المحضرون يعلمون بعودته حتى بدأوا فى مطاردته واضطهاده . ولم يكن جودوين ، إزاء شلى ، عاجزاً عن السداد فقط ، ولكنه كان فى حاجة إلى مبالغ جديدة منه ! وكانت هذه المسائل المالية هى التى أرغمته على المضى فى مراسلة شاب خائن فاجر . . وكان ضميره يعذبه كثيراً لهذا الاضطراب . . أو على الأقل كان هذا ما يقوله فى كل خطاب ! وكانت هذه المراعاة من رجل طالما أعجب به شلى ، وعبدته ماري ، سبباً فى حزنهما ، فكانا يقولان ، وهما يتنهدان : « آه منك أيتها الفلسفة ! . . »

أما مسز جودوين فقد كانت ناقمة عليهما لأنهما أفسدا عليها بنتها التى ليست من جودوين ، وحظرت على « فاني » اللطيفة

أن تزورهم . وذهبت هي مرة واحدة لترى « جين » ، فلقيت شلى فى السلم ، فلوّت عنه رأسها ، وطوت كشحها ! . . . وكانت العلاقات بهارييت تارة سهلة ، وتارة صعبة ، تبعاً لتقلبات طبعها . ولم يكن ينقصها شيء ، وما زالت لديها فضلة من مال شلى ، غير المعاش الذى أجراه عليها الخمار العجوز . . . ولكنها كانت حاملاً ، أشقى ما تكون . . .

وكانت صاحباتها يقلن لها إن لفحات الهوى قصيرة الآجال سريعة الزوال . وإن زوجها سوف يعود إليها . وعندئذ يستخفها الرضا . وتكتب إلى شلى خطابات ودية . وكانت تعتقد أن ماري هي أسّ الشر ، وقد سحرت برسى بما تقصه عليه من حكايات خرافية .. وهو فى الواقع طيب القلب ، ولن يهجرها ومعها طفلاه وكانت أحياناً تعصف بها نوبات حزن وسورات غضب ، فتحاول أن تزيد فى متاعب الشخصين الممقوتين : فتستدين ، وتبعث بالدائنين إلى شلى . وتروى للناس أنه يعيش عيشة الخنا مع فتاتين من بنات جودوين . وتذهب لتلقى دائنى جودوين ، تحرضهم ، ليعمنوا فى قسوتهم . . . وتسمع ماري بهذا كله ، وهى لم تر قط هارييت ، فتتهد قائلة : « يا لها من امرأة فظيعة ! . . » وفى يوم من نوفمبر شعرت هارييت بآلام ، وتوهمت أنها مريضة جداً . . فبعثت إلى شلى ليلاً ، فهورول إليها . فلم يكد

يبدى اهتمامه بها ، وحده عليها ، حتى ذابت حناناً . . . لكنه دفعها عنه بحزم رفيق . .

وفي آخر نوفمبر وضعت ولداً ابن ثمانية أشهر . . ولم يؤد مولده إلى مصالحة أو وفاق . وكان شلى يشك في أن الولد ولده ! أما مع ماري ، فبالرغم مما هما فيه من شدائد وخطوب ، فقد كانا سعيدين بعدان الحياة فرصة ، أو جامعة يبحثان فيها ويتعلمان ، وكانت تصحبه في زيارته للمحامين والمحضرين . . وإذا ما راح على شاطئ النهر يلهو بحشد أسطول من الورق تجلس هي إلى جانبه ، وتبني له السفن . وأخذت نفسها ، تحت إشرافه ، بدراسة اللاتينية واليونانية . وكانت أوفر ثقافة من هاريت ، فلم تر في هذه الدراسات سبباً للضجر أو السآمة ، بل رأتها مضاعفة لمسراتها ، فإن القبلة المتبادلة بين شخصين مثقفين ثقافة أدبية مشتركة تكون أحر وأحلى

كانت الغيمة الوحيدة في سمائهما هي أختها « جين » التي رأت أن اسمها « جين » قبيح ، فاتخذت لنفسها اسم « كليز » ! وكانت فتاة لامعة ، جميلة ، ولكنها عصبية دقيقة الشعور سريعة التأثير . ولم يكن أشد خطراً على أعصابها من العيش المتصل المقيم مع شاب وشابة عاشقين . وهي تحمل لشلى إعجاباً قوياً حاراً ، وتبديه بجلاء أكثر مما يحسن . . وكانت ماري تشكو من ذلك ،

ولم ير شلى فى هذه العاطفة ما لا يجوز أو ما لا يليق !
 وكانت مارى تنتظر ولداً فلزمت البيت ، وساق شلى معه
 « كلير » إلى المحامين والمحضرين ، وإلى شاطئ النهر ، ورجا منها
 أن تسهر معه الليل الطويل . وحدثها عن : هارييت ، وعن مس
 هتشير « شقيقة روحه ! » ، وعن أخواته . . .

وكان يحب : البوح ، والإفاضة ، والتحليل الفكرى !
 وبدأت له الصراحة الخالصة التامة أسهل وأيسر مع كلير التى لم
 تكن خليلته . ولم تستطع مارى على هذا كله صبراً ، فلم تخف
 فروغ صبرها ، فانكملت كلير من عتاب أختها ، وتمرمرت ،
 ولزمت الصمت الكتيب . .

وفى المساء ، آوت مارى إلى فراشها . فحاول شلى أن يهدئ
 من نائرة كلير ، وأن يسرّى عنها . . فأخذ فى رقة وأناة يفسر لها
 العواطف المتضاربة فى حزبهم الصغير . وكان من اللطف
 والعطف بحيث اقتنعت ورضيت ، ولما لحق بمارى أعاد على
 مسمعها ما كان من حديث . وسمعا فوق غرفتهما كلير تمشى
 وتتكلم فى منامها . . ثم لم تلبث أن نزلت . فقد كانت أعصابها
 من التوتر بحيث لم تستطع البقاء وحدها . فأخذتها مارى فى
 سريرها ، وصعد شلى للنوم فى الغرفة العليا
 وتكرر هذا الفصل مراراً . . .

وأصابت عدوى الأعصاب المتوترة شلى . ففي ذات ليلة ،
بعد حديث عن الأشباح وظهور الأرواح هزيعاً من الليل ،
انتهى بهم الأمر جميعاً إلى الخوف والرعب !

° ° °

كان حكم ماري على هج قاسياً . فهي تعده ، على خفة
روحه ، يخطئه الجحد في نظريته إلى الأمور . وكانت محقة في ذلك
لأن هج قد لبس قباء المحافظين من أهل وطنه ، وصار نصيراً
للتقاليد . وقال مرة لشلى : إنه يرى ماري حسناء وافرة الذكاء ،
فنقل شلى رأيه هذا إلى ماري ، فلما زارهم على أثر ذلك بدأت
ماري تستلطفه . . واندمج في جو هذا البيت مرة أخرى ، يترجم
ويطالع مع ماري وكليير . ويصحبهما إلى صانعة القبعات . .
لأنهما كانتا أيضاً تذهبان إليها مثل هاريت المسكينة ، ولكن
بروح أخرى . . فالقبعات عند ماري لازمة متواضعة ، أما عند
هاريت فكانت هوية وهياماً !

— ٢١ —

حملت خادماً « البيت المفروش » خطاباً من سيدة تنتظر على
الرصيف المقابل . وكان الخطاب من فاني ، ينذر شلى بأن
دائيه يعدون العدة للقبض عليه ، فتزل إليها شلى وكليير مهرولين ،

فما إن رأتهما حتى ولت هاربة . ولكن تلميذ « أيتون » عداء سريع ، فلم يلبث أن لحق بها . فأخبرته بأن المخضرين يبحثون عنه ، وأن ناشره أعطاهم عنوانه ، وأن جودوين لن يحرك ساكناً لإنقاذه !

ولما لم يكن معه مال فليس أمامه إلا الاختفاء . فانتقل إلى مسكن آخر ، بينما تظل ماري وكليز حيث هما لتضليل العدو ! وضرب الفراق بين العاشقين . . وبدأت لهما هذه الفرقة حرقه . فكانا يتواعدان على اللقاء في الحانات أو الخانات النائية ، يتبادلان بعض القبل خلسة ، ثم يفترقان خشية أن يكون هناك من يقتنى أثر الحبيبة . .

وفي يناير ١٨١٥ مات الشيخ الهرم السير بيش شلى ، فى الثالثة والثمانين . فأصبح مستر تيموثى بدوره باروناً ، وصار شلى وارثه المباشر . فسافر إلى بيت أبيه ، وبصحبه كليز ، فتركها فى القرية ، وقصد وحده قصر فيلد بلاس . وكان السير تيموثى منتفخاً من كبرياء لقبه الجديد ، وهو أشد مما كان استنكافاً من أن يكون له مثل هذا الولد ، فأبلغه بواسطة الخادم أنه يرفض استقباله . فجلس على السلم ، وجعل يقرأ أشعار « ملتون » فى انتظار الأخبار . . وما لبث الطبيب أن خرج ، وقال له إن والده كان فى حالة غضب شديد ، ثم خرج كذلك ابن

عمه « سيدنى شلى » للسلام عليه خفية وإحاطته بتفاصيل الوصية وكانت وصية خارقة للعادة . فقد كان السير بيش شلى لا يدور بخلده غير فكرة واحدة ثابتة ، هى تكوين ثروة هائلة يتوارثها الخلف عن السلف . وكان ذلك يقضى بأن يزيد فى حبس الأملاك ووقفها قدر طاقته . فترك ٢٤٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى ، منها ٨٠,٠٠٠ جنيه تمثل الوقف الذى يعود إلى برسى حتماً عند موت والده . وإذا قبل برسى شلى امتداد الوقف كان له حق الانتفاع بربع الثروة كلها . . وإذا لم يقبل فإنه لا يرث بعد موت أبيه السير تيموثى إلا ٨٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى فقط ، لا سبيل إلى حرمانه منها بأى حال من الأحوال

فعاد شلى إلى لندن وقصد محاميه ليناقشه فيها . وقدّر استحالة قبوله امتداد الوقف ، لأنه يأبى تشريعاً شاذاً كهذا يجعل الثروة بمنزلة رب من الأرباب تُفرض عبادته وتقديسه ! وكذلك يأبى حيازة مثل هذه الثروة الهائلة . أما ما كان يتمناه فهو أن يحصل فى الحال على دخل كاف للعيش حسب مزاجه ، وعلى مبلغ صغير يكفى لتسديد ديونه . فأرسل اقتراحاً إلى أبيه : بأنه مستعد لأن يبيعه حقوقه نظير دخل عاجل . وراق هذا الاقتراح السير تيموثى شلى ، إذ كان قد فقد كل أمل فى رد برسى عن غيه ، ولم يعد يفكر إلا فى ولده الثانى . . غير أن

رجال القانون لم يفصلوا في شرعية تحقيق هذه الرغبة المشتركة بين الوالد والولد ، لكنهم أجازوا فقط أن يبيع شلى إلى أبيه جانباً من الميراث ، نظير دخل سنوى قدره ألف جنيه إنجليزى ، ويأخذ بادئاً مبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات أو أربعة آلاف نقداً لسداد ديونه . ولم يكن هذا بالنسبة لشلى الثروة الطائلة . ولكنه كان على كل حال نهاية الضيق والبأساء

واتجه فكره ، أول ما اتجه ، إلى ربط معاش لهاريت . فوعدها بمئتي جنيه سنوياً ، إذا أضيفت إلى تلك التى يعطيها إياها أبوها وستبرك جعلتها فى مأمن من كل حاجة . ثم عمل على دفع ديون جودوين ، ورصد لذلك دخل عامه الأول كله ! بيد أن « الصديق الموقر » رأى أن هبة الألف جنيه هى دون ما كان ينتظره بكثير ، بكثير . . وأنه ليس أسهل من الاستدانة على ميراث أصبح الآن دانياً . . وقد تميز شلى من الغيظ ، وتلظى حنقاً . . ولكنه تمالك ، وكتب الى جودوين يعبر عن دهشته من أن يرى والد مارى أنه من الطبيعى الكتابة إلى مغتصب ابنته سائلاً إياه مالا ، ويأبى فى الوقت نفسه وصل العلاقات مع هذه البنت نفسها ! فأجاب جودوين أنه لهذا ، أى بسبب استدائنه من مغتصب ابنته ، لا يستطيع أن يفتح لها أبواب بيته ، فهو لن يجازف بأن يتقول عليه العالم أنه قايض على

شرف ابنته ليدفع ديونه . ورد جودوين « شيكاً » مرسلاً من شلى باسمه ، موجهاً نظره إلى أن اسمي « شلى » و « جودوين » لا يليق أن يظهرهما معا على شيك واحد ! . . وعلى شلى أن يبعث بالشيك باسم مستر « فلان » أو « علان » ، وعندئذ ، وعندئذ فقط ، يرضى جودوين بتحويله إلى « جودوين » ! . .

وبعد رسائل عدة تبادلها حول وصل العلاقات ، وبعد عناء طويل من جودوين ، وهافت شديد منه على مال شلى ، واشمئزاز شلى لأجل هذا من الجنس البشرى كله ، كتب شلى إلى جودوين : « سنقف صلاتنا ، من الآن فصاعداً ، عند حد الأعمال والأشغال . وإنى أوافق على ما تراه من ضرورة الاقتراض على معاشى السنوى . وإنى أرى جلياً إلى أى حد تلزمك حالا سلفيات من المال لسداد حاجاتك . . وسأبذل كل ما فى وسعى لأحصل لك عليها . . . »

وهذا من شلى ، هذا الاحتقار فى برود ، وهذا الإحسان فى صدود ، ما كانا ليوهنا من عزم المقترض على الاقتراض ، ومد الأكف وتصعير الحدود ! . .

وكذلك كان جودوين ! . . .

وضعت ماري طفلاً لم يتم حمله ، فقال الطبيب : إنه لن يعيش . وظل شلى ساهراً ، مقسماً فؤاده بين المهدي وسرير النفساء ، مؤتسماً في سهره بصحبة المؤرخ اللاتيني « تيت ليف » ، أو الفيلسوف « سنيكا » . . . من حكماء الزمن الغابر ! . .

وحملت « فاني » صندوقاً خشبياً للملابس الطفل ، هدية من مسز جودوين الغريبة الأطوار . ولكن زوجها الفيلسوف العجس قد ظل صلباً لا تلين له قناة . وجاء هج فأنزل السكينة على قلب ماري بحديثه اللاذع الفكه !

ونما الطفل برغم النبوءة ، وعاش شهراً .. فبدأت ماري تطمئن .. ولكنها استيقظت ذات صباح ، فوجدته ميتاً !

واستمر شلى وكليز يجولان لندن معاً ، وماري باقية في البيت ، تشتغل بالإبرة ، وتفكر في طفلها الصغير ، الذي جعلها أمّاً ، ثم حرمها الأمومة . . وفي الشارع يسمع ضجيج الجماهير وصياحها . إذ كان الوقت وقت اضطرابات وشغب . فقد عاد نابليون من جزيرة إلبا ، وجاءت تهديدات بالحرب من جانب فرنسا . . وماري كأن على عينيها سخابة من الدموع ! وكانت تغار من كليز . واعترفت لشلى بغيرتها . والغيرة عنده

عاطفة خسيصة ، تنقص في عينيه من قدر معبودته ماري . . أى شىء يمس حبه إياها إذا ما بسط حمايته على امرأة سواها ؟ . . غير أنه سلم بأن جو بيتهم الثلاثى صار خانقاً . وبحثا لكثير عن وظيفة مربية أطفال . غير أن السمعة الغريبة التى أدركتها بفرارها إلى فرنسا جعلت كل مسعى عديم الجدوى . . وهى لا تريد الذهاب ، لأنها فى حباها لشللى تنتظر التطورات بلا انزعاج . . وأخيراً قبلت ما أعد لها من الزول ببلدة « لينموث » ، عند أرملة من أصدقاء أسرة جودوين

• • •

كثير فى منفاها الريفى ، غير أنها لم تكن بالتى تقنع طويلاً بالوحدة الخلوية . فبحثت عن سبب للعيش . . . أما وهى ذكية جريئة ، وقد أدركت استحالة أخذ شللى من أختها ، أو حتى مشاركتها فيه ، فقد بحثت بحساسة عن بطل آخر لعواطفها المكبوتة !

ولم تجد أليق بها من لورد بيرون ، الرجل الشاعر الذى يعبد فى إنجلترا عبادة ويلعن لعناً ، وكانت تحفظ أشعاره ، التى طالما ردها شللى . . وكانت تعرف ما نسج حول اسمه من أساطير الرذيلة والحجون ، والفتنة الشيطانية ، والقسوة الجهنمية ! جمال الرجل ، وعظمة الاسم ، وعبقريه الكاتب ، وجرأة

أفكاره ، وفصائح غرامياته : كل هذه اجتمعت لتجعل منه
البطل الكامل . وكانت له خليلات من أرقى الطبقات !
حين تزوج روى عنه أهل لندن جميعاً : أنه بعد عقد الزواج
قال لعروسه وهي تصعد مركبة الزفاف : « ها أنت ذى قد
صرت زوجتى ، وهذا يكفى لأن أمقتك . . ولو أنك كنت
زوجة رجل سوى فلربما أحبيتك ! »

وعاملها باحتقار ، فطلبت الانفصال عنه بعد عام واحد !
وراحت كليز تطارد برسائلها دون جوان فى شخص لورد
بيرون ، تعرض عليه حبها ، ونفسها ، تنتحل لنفسها الأسماء ،
وتتلون فى الطلب ، أو فى العرض ! ولكن دون جوان لم يرد عليها !
وهل هناك أشد عناداً من امرأة متعبة من عفتها ، زاهدة فى
فضيلتها ؟ . . فضلت مهاجمه ، وتطارده !

وظل ملازماً صمته . . وأخيراً جازفت بعرض الشئ الوحيد
الذى قلما يرفضه زير النساء المعتز . كتبت إليه رسالة طويلة
ختمتها قائلة : « . . . فهل تراك تسمح لى بالعيش معك بضع
ساعات ؟ . ثم لن أبقى لحظة بعد أمرك لى بالانصراف . . .
وأفعل بعد ذلك ما بدا لك . . واذهب ، نقل فؤادك حيث شئت
من الهوى . وارفض أن ترانى . . واقس ما طابت لك القسوة ..
فلن أذكر منك إلا رقة شمائلك ، ووحشية طبعك الشائقة ! »

ها هو ذا دون جوان ، آخر الأمر ، قد وقع في الفخ . .
 تعب من طول المطاردة ، وتقبل هزيمته من هذه الغازية . . .
 وكانت نفسه من قبل تهفو إلى مفارقة انجلترا والعيش في
 سويسرا أو إيطاليا ، فرحب بهذه الغرامية المفروضة عليه فرضاً ،
 المغتصبة منه اغتصاباً !

— ٢٣ —

لم يكن دون جوان هذا يتوقع أن يلقى الاضطهاد الطويل ،
 من « صيده الهزيل » . فقد قررت كلير : أن تتبعه إلى
 سويسرا . وعملت على أن يرافقتها شلى ومارى !
 وكان شلى قد انتهى من ملحمة جديدة « قرين الوحدة » :
 تمثل فيها حكايته ، وما أصابه من دهره وأهله ، وعبر في مقدمتها عن
 « ظمأ الشاعر للحب ، وموته لأنه لم يجد حباً . . وهو يموت
 راضياً ، قرير العين ، للخلاص ممن حوله من الناس : الأحياء
 الموتى . . أولئك الذين لا هم بالأصدقاء ، ولا بالتحبين ، ولا
 بالآباء ، ولا بالمواطنين الأوفياء ، ولا بالمحسنين الكرماء . .
 فعيشهم وموتهم سواء »

ولم يكن شلى نادماً على ما فعل ، ولكن العيش في انجلترا
 أصبح عنده مر المذاق . وكانت ماري ، تشكو وحدتها وعزلتها ،

وترجو أن تجد في البلدان الأجنبية صديقات لها ، حيث لا
تُعرف حكاية هربها ومغامرتها . . وقد وضعت في يناير ١٨١٦
ولداً ثانياً سمته « وليم » ، تيمناً بأبيها « وليم جودوين » ! . فزاد
على بيتهم شخص المرضع ، وضاق البيت بنفقاته ، وتضاءل معاشه !
وكان يقال إن العيشة في سويسرا رخيصة . . ولم تجد
كلير صعوبة في إقناعهما بذلك ! .

وفي سويسرا نزلوا بفندق إنجلترا ، في سيشرون ، من
ضواحي جنيف . . وبدا لهم هناك أن هذه المشاهد المرصعة بأمواج
الشمس الحنون غاية في الجمال . . فاستأجروا مركباً ، وراحوا
يقضون أيامهم في البحيرة ، يقرأون ، وينامون . . .

وبينا كانوا هكذا سعداء ، بين الماء والسماء ، كان شايلد
هارولد ^(١) ينزل نحوهم ، من صحور إنجلترا ، في موكب
حافل . . فهذه البلاد ثارت عليه ، في نوبة عارضة من نوبات
الفضيلة التي تصيبها وتتابع عندها ، فهبت وطردته عن شواطئها . .
طردت السيد دون جوان المتهم بالزنا بمحرم . . وأثار رجيله أشد
التطلع . . فإن المجتمع ، الذي يعاقب بقسوة أية فتنة في الغرائز
يחסد في صميمه مرتكبيها ، ويعجب بآثمها . تراحم صفان
هائلان من المتفرجين عند مدخل الميناء . . واستعارت كثيرات

(١) كناية عن لورد بيرون مؤلف الديوان المعروف باسم « شايلد هارولد »

من النبيلات والنساء الراقيات ملابس وصيقاتهن وخادماتهن
ليختلطن بالجواهر دون أن يستلفتن الأنظار . . وكان البحر
هائجاً ، فذكر بيرون لرفقائه أن جده ، الأميرال بيرون ، كان
معروفاً في الأسطول باسم « جاك العاصفة » . . لأنه لا يحب
الإبحار في غير الزوابع والزعازع . . وكان بيرون برحيله تعساً
شقيساً ، فأراد أن يكون ألمه عظيماً كالإعصار . . .

ونزل بيرون فندق انجلترا . . وكان جمال محياه رائعاً . وأول
ما يروعك منه الزهو والذكاء . ثم شحوب بشره كضياء القمر ،
تتلاها في وجهه عينان نجلاوان في زرقة قاتمة ، شعره أسود ،
وحاجباه مقوسان ، وأنفه وذقنه يدلان على العزم ، وفمه يدل
على الاشتها . . وكان عيبه الوحيد أنه يعرج ، ويقول عن نفسه
إنه يظلع كما يفعل الشيطان ! .

وسر الرجال بالتعارف . وجد بيرون في شلى رجلاً من
طبقتة ، استطاع رغم عسره أن يحتفظ باليسر الشائق ، وأدهشته
منه ثقافته . فإن بيرون قد قرأ كل ما قرأ شلى ، لكنه لم يقرأ
بكل هذا الجهد الخارق للعادة . فقد أراد شلى أن يعرف ، وأراد
بيرون أن يبهز . وأدرك بيرون ذلك الفرق تمام الإدراك . وكذلك
أدرك أن إرادة شلى هي قوة نقية خالصة ، في حين أنه هو نفسه
يطفو على تيار شهواته ، وهوى خليلاته . .

ولم يدرك شللى هذا الإعجاب الذى يحمله له بيرون، ويسعى بإخفائه عنه . فى حين أنه هو ما استمع النشيد الثالث من «شيلد هارولد» ، حتى تأثر من التحمس له، وعجزه عن مجاراته . فقد عرف فى هذا الشعر العبقريّة التى يشس من التحليق إليها وإذا كان الشاعر فيه يخلب لبه فإن الرجل فيه يدهشه كثيراً . فقد رأى فيه سيداً «أرستقراطياً» عظيماً ، صريحاً، شديد الخفاوة بما يبعثه الغرور فى النفس من المسرات والآلام، تلك التى يزدريها شللى ، لأنه أقل الناس غروراً . .

أما بيرون فقد تحدى ما اصطاح عليه العرف والعادة . . وإذا وقفت هذه التقاليد فى طريق رغباته طرحها جانباً . . وأما ما فعله شللى بسداجة ، فقد فعله بيرون عن معرفة وجسارة ، ولم يكن بيرون يحب شيئاً ويقدره كالظهور والبروز فى المجتمع ! وكان زوجاً رديئاً، ومع ذلك لم يكن يحترم إلا الحب المشروع . وملء فيه الأقوال الساخرة الكافرة ، وهو لا يعترف بأمر وسط بين الزواج والفجور ، وإنما لعب فى انجلترا ذلك الدور الجرىء الزنيم ، لأنه عجز عن امتلاك القلوب بعمل تقليدى كريم ! وشللى ينشد فى النساء ينبوعاً للحس والوحى والإلهام ، ولا يبحث بيرون فيهن إلا عن سبب للراحة والحمول ، والفتور عنهن . . كان شللى ملائكياً ، سماوياً، يقدسهن . . وكان بيرون بشرياً،

أرضياً ، يشتهين ، ويحتقرهن ، وينعتن بأفحش النعوت . .
 كان يقول : « ما أفضع النساء ، لأننا لا نستطيع العيش معهن ،
 ولا بدونهن » (١) ! . . وكان يقول أيضاً : « إن مثلى الحميل الأعلى
 هو امرأة من الفطنة بحيث تفهمنى وتقدر ذكائى ، ولا تكون
 من الفطنة بحيث تمنى أن تلوح بنفسها ويعجب بها ! . »

على أن هذا لم يحل دون الصحبة الشائقة بين شلى الصوفى
 و « دون جوان » . وكان كلاهما يحب ركوب البحر ، فاشتركا
 فى شراء مركب ، يبحران به كل مساء ، مع ماري وكلير
 وطبيب بيرون الخاص ، وهو شاب ليطالى جميل يدعى
 « پوليدورى » . فيجلس بيرون وشلى صامتين ، يتبعان
 ببصرهما الصور الخاربة من السحب فى طيات أضواء القمر . . بينا
 كلير تغنى ، وصوتها الشجى يحمل الفكر ، ويحلق به فى اشتها ،
 فوق المياه المرصعة بالكواكب . .

وقام شلى وبيرون معاً بحج أدبى حول بحيرة جنيف ،
 التى شهدت غراميات روسو وفولتير . . وهناك هبت عليهما رياح
 هوج ، كادت تقلب المركب . . ونخلع بيرون ثيابه استعداداً . .
 أما شلى ، الذى لم يكن يعرف العوم مطلقاً ، فقد ظل ثابتاً
 لا يتزعزع ، وذراعه متعانقتان على صدره . . فزادت شجاعته
 (١) يؤثر عن الإمام على فى هذا المعنى : « النساء شركلهن ، وشر ما فيهن :

الحاجة إليهن »

هذه في تقدير بيرون له ، وإعجابه به . . . بيد أنه غالى في إخفاء ذلك الإعجاب عنه أكثر من ذي قبل !

ثم استأجر شللى كوخاً على شاطئ البحيرة . . وسكن بيرون « قبلا ديوراتى » على مقربة منهما ، لا يفرق البيتين إلا مزرعة عنب

ولم توفق كلير في حبها . فقد حملت ، وبرم بها بيرون ، وأفهمها بخشونة أنه سئمها واجتمأها

قال : « أنا أخذتها ؟ . . خطفتها ؟ . . ليت شعرى من الذى أخذ وخطف في هذه الحكاية ، إن لم يكن المسكين العزيز « أنا » ؟ ! . . . وهم يتهمونى بأنى غليظ القلب مع النساء . . والله يعلم أننى كنت ، طول عمرى ، شهيدهن ! . . ولم يحدث من عهد حرب طروادة حتى الآن أن أخذ رجل وخطف بعدد ما أخذت وخطف . . وما أنا في هذا إلا ضحيتين ! . . »

وناقشه شللى في مستقبل كلير وطفلها المنتظر . . فكان زاهداً فيها تماماً لا يعنيه إلا أن يخلص منها في أقرب وقت ، أما عن الولد فقد خطر لبيرون أن يعهد به إلى أخته أوجستا ! . . فلما رفضت كلير وعد بالعناية به عند ما يبلغ سنة من عمره ، على شريطة أن يكون في ذلك مطلق التصرف

وأصبح من الصعب على شللى أن يبقى بجوار بيرون ،

لا لفتور ما بينهما ، وإنما لأن كليهما كانت تتألم ، كما أن ماري
اشمأزت من موقفه وأقواله اللاذعة
وكتب شللى إلى صديقيه « بيكوك » و « هيج » ليستأجرا
له فى وطنه بيتاً.. وبدأت القافلة ، صوب الوطن ، تسير . . .

° ° °

وظل شللى يرأسل بيرون ، ولم يقنط من « إنقاذ » صاحبه .
وكان يمزج لهجة التقدير والإكرام للشاعر العظيم ، بالتعالى عن
خلق الرجل غير القويم . . وعارض قلق بيرون المتوالى فيما يتعلق
بسمعته وشهرته ، بصورة المجد الحقيقى :

« أعبئاً إذن خلق العظمة والرحمة ، وبسطهما على الناس ؟ .
أعبئاً إذن أن يكون المرء ينبوعاً تستمد منه عقول سواه من البشر
القوة والجمال ؟ . . ترى ، ماذا كانت تكون الإنسانية ، لو لم
يكتب هوميروس وشكسبير آياتهما البيّنات ؟ ! . . لست بهذا
أشير عليك بالطموح إلى المجد . فإن حوافز عملك ودوافعه
يجب أن تكون أنقى وأرقى . فلا ترج أكثر من أن تعبر عن ذات
أفكارك ، وتتجه بها نحو أولئك الذين يتأثرون بها ، لأنهم
يستطيعون الانسجام معها ، والتفكير على مثالك . . والمجد يتبع
أولئك الذين هو غير جدير بأن يقودهم . . . »

وكان لورد بيرون ، فى تلك الأثناء ، متجهاً نحو فينيس ،

مدينة الجندول ، الناعسة الجفون ، فقرأ هذه النصائح السامية ،
 في كلال وتراخ ، وعدم اكتراث . كان يتعبه الإسراف في
 التقدير ، وتزعجه المبالغة في التوقير ! . . .

— ٢٤ —

من الفتيات الثلاث ، اللواتي كن يملأن بيت سكنر
 سترت حياة وبهجة ، لم تبق إلا واحدة : « فاني إملاى » بنت
 ماري ولستونكرافت ، من زوجها الأول . وهي الوحيدة التي
 على رغم رقها وحنانها لم تعجد زوجاً ، ولا عشيقاً . . وكانت
 محتشمة ، متواضعة ، محافظة . . وهذه فضائل يمدحها الرجال ،
 ولكنهم لا يكافئونها ! . . وقد أمّلت لحظة من حياتها أن يعنى
 بها شلى ، وبدأت تبادل رسائل خاصة . . لكن ماري حطمت
 كل ما بنته من آمال !

وأنبأها جودوين أنه لم يعد يستطيع الإنفاق عليها ، وأن
 عليها أن تعمل لتعيش . .

وكانت تريد أن تصبح معلمة . غير أن هرب ماري وجين
 قد جر سوء السمعة على آنسات « سكنر سترت » ، وصارت
 ناظرات المدارس يحذرن هذا اللون من التربية !
 وكانت تعجب بالحياة الجنونية الخيالية التي تحياها أختاها ! .

ليتها على شاطئ بحيرة جنيف تعيش مع لورد بيرون ، الذى يتحدث عنه لندن بأسرها ! . .

« هل هو من الجمال كصورته ؟ قولوا لى ، أصوته شجى ، لأن للصوت تأثيره الشديد فى ؟ . . أيجىء عندكم ، بلا كلفة ؟ أريد أن أعرف : هل يلوح عليه ارتكاب ما يتهمه الوشاة به ، فى لندن ، من آثام جسام ؟ . . إى ، حين أقرأه ، لا أعتقد أنه مخلوق إلى هذا الحد من الشناعة . فإنى إذا أحببت الشاعر تمنيت لو احترمت فيه الرجل . قولوا له إن لكم صديقة محرومة من متع الحياة ، تحب أن تقرأ أشعاره قبل نشرها . . . »

وكانت مارى وكليز وشلى يتلقون هذه الرسائل الرقيقة مشفقين : « مسكينة فانى ! . لشدة ما نقيت على لون سكر ستريت ! .

وزادت عبوديتها شعور أختيها بحريتهما ، وتقديرهما لهذه الحرية . . كما أن وحدتها جعلتهما تدركان كل قيمة حبيهما ورأوا فانى خلال مرورهم بلندن . . كانت حزينة ، لا تتكلم إلا عن وحدتها ووحشتها وعدم جدواها . فما من أحد على هذه الأرض يريد لها . وعندما قالت لشلى « إلى اللقاء » ارتجف صوتها . . وأرسلت إليه فى « باث » رسائل من رسائلها الرقيقة المعتادة ، ممتزجة بشيء من العتب ، كذاك الذى يوجهه

الأحياء الموتى إلى الذين ما زالت حياتهم ملء الحياة !
 وكانت لفانى خالة تدعى « إفرينا وولستونكرافت » ،
 وعدت بتعيينها مربية فى مدرستها . . وما عتمت أن كتبت إلى
 جودوين : « إن أخت مارى وكثير قد تسبب الرعب للآباء
 والأمهات الضيقى العقول ، من الطبقة المتوسطة »

وفى ذات صباح تلقى شلى ومارى رسالة غريبة من مدينة
 بريستول ، تقرئهم فيها فانى الوداع بعبارات مبهمه :
 « إنى راحلة إلى مكان أرجو ألا أعود منه أبداً » . .

وسافر شلى فى الحال إلى بريستول ، ثم عاد بأنباء سيئة .
 فقد أخذت فانى عربة المسافرين من بريستول إلى « سوانسى »
 حيث نزلت فى فندق واعتكفت لساعتها فى غرفتها ، وفى اليوم
 التالى وجدوها ميتة ، يغطى شعرها الطويل وجهها . وعلى المنضدة
 زجاجة من خلاصة الأفيون ، ورسالة بدأتها :

« إن الخيرة هى فى وضع حد لوجود مخلوق كان مولده عاثراً ،
 وما كانت حياته بعد ذلك إلا سلسلة آلام ومتاعب للذين بذلوا
 من صحتهم لإطعامه . . . قد يصيبكم العلم بموتى ببعض الحزن ،
 لكنكم لا تلبثون أن تسعدوا بنسيان مخلوقة مرت عابرة على سطح
 الأرض . . . »

زلزلت أعصاب شلى ، وتضعضع ، من موت فانى المروع .

ولتحت مسز جودوين إلى أن الفتاة قتلت نفسها بسبب حبها
الكظيم له . وعندئذ تذكر بعض علامات لتأثرها واضطرابها ،
فلعله من حيث لا يدري قد أشعل يوماً عواطفها ! . . ولعلها
رصدت ، ووزنت ، وحلت ، بقلق وعناية ، أقوالا منه ،
أو نظرات ، لم يقصد بها إلا اللطف البريء . . « ما أصعب أن
يدرك المرء العوامل التي تجيش بها صدور غيرنا ! . . ويا للآلام
التي نسبها من حيث لا نرغب ولا ندري ! . . ما أكثر ما يمر
الإنسان إلى جانب مشاعر عميقة ، وعواطف صديقة ، وأحياناً
يائسة قانطة ، دون أن يحس حتى بمجرد وجودها ! . . »

إذن ، فلا يكفي أن يكون المرء مخلصاً ، وأن تكون نياته
شريفة . إننا قد نسبب من الضر والشر ، بعدم الإدراك والفهم ،
مثل ما نسبب بالقسوة والظلم !

وألقت هذه الخواطر كلها بشلى في غياهب من الكآبة
لا قرار لها . . .

ولكى يسرى عن نفسه ، ويهون بعض ما به ، سافر
وحده ليقضى أياماً عند الناقد الأدبي الشاب « ليز هنت » ،
الذي سبق أن أطرى شعره وقرّظه بحماسة وفطنة . وكان هنت
يسكن في ضاحية « هامستيد » ، قرب لندن . وكانت زوجته
« ماريان » امرأة بسيطة مثقفة . ووراءها ثلثة من أطفالها الفاتنين ،

يستطيع شلى أن يرتع معهم ويلعب ..

وهناك نسي فاني وجودوين !. فلما عاد وجد في انتظاره خطابا من الناشر « هوخام » ، فتحه متطلعا ، لأنه كان قد كلفه اقتفاء أثر هارييت ، إذ انقطعت عنه أخبارها منذ شهرين : قبضت معاشها في مارس وفي سبتمبر ، على عنوان بيت أبيها وستبروك . ثم لم يُعرف شيء عنها منذ أكتوبر !

وكانت رسالة « هوخام » أن هارييت ماتت غريقة وانتشلت جثتها من نهر السربنتين !

فسافر شلى إلى لندن في حالة يرثى لها . فقد تخيل ، في رعب ، ذلك الرأس الأشقر المحيط بذلك المحيّا الوردى ، الذى طالما نظر إليه بكل ما يحمله الفؤاد من بشر والتذاذ .. تخيله وقد غطته وحول النهر ، وأدمته أمواجه ، وورمته ، وصبغته بلون الغرقى القرمزى .. وضرب أخماساً لأسداس فيما يمكن أن يكون قد حملها على إيثار ميتة شنيعة كهذه ، والتخلى عن ولديها .. وأخبره « هنت » و « هوخام » بما وقفوا عليه . وكانت جريدة التيمس قد نشرت هذا الخبر (١) :

« في يوم الثلاثاء انتشلت من « السربنتين » جثة امرأة

(١) إن كل كلمة ، وكل جملة ، وكل واقعة ، في هذا الكتاب ، من أوله إلى آخره ، قد قيلت فعلا ، أو كتبت ، أو وقعت .. ومهما يبد عجيبا فهو جزء صادق من التاريخ « ص »

ذات هيئة محترمة ، وفي حالة حمل متقدم . ووجد في أصبعها خاتم ثمين . والمفهوم أن سوء مسلكها قد أدى بها إلى هذه الفاجعة ، في حين كان زوجها خارج البلاد »

وكان ما يدور على الألسن ، في حي « كوين ستريت » :
 أن هارييت قطعت كل رجاء في عودة شلى إليها . فسلكت سبيل اليائسين . . وسقطت . . فعاشت ، مع ضابط جيش .
 ثم اتخذت لها خليلاً وضيعاً ، قيل إنه خادم ، ثم هجرها . .
 وأخذ منها أهلها ولديها ، وقطعوا كل صلة بها . وقيل إنها كانت حاملاً ، فروعت بالفضيحة القريبة المحتومة . . فألقت بنفسها في بلحة النهر . .

وقضى شلى ليلة ليلاء ... يردد لنفسه في مثل حالة الهذيان :
 — « في حالة حمل متقدم . . . ؟ ! .. يا لها من نهاية لحياتها ! .. يا للجنون ! .. هارييت ، زوجتي ، عاهرة ! .. هارييت ، زوجتي ، منتحرة غريقة ، جثتها طافية ! ؟ . . . ترى أكان مشولاً ؟

ونبذ هذا الخاطر بكل قواه :

— لقد عملت ما كان على عمله . ولما تركتها ، لم تكن على حب . وقد وفرت عليها من وسائل العيش ما كان فوق طاقتي . . ولم أقس في معاملتها . . إنهم أولئك « الوستبروك » الشنعاء ! ...

أكان ينبغي لى أن أضحي بحياتي وفكري لامرأة غير وفية لى !
 فأجاب عقله : « كلا » . وأجاب صاحباه هج وبيكوك ،
 اللذان أحاطا به لإشفاقاً ورفقاً : « كلا » .. فتضرع إليهما أن
 يعيدا ذلك ويكرّراه على مسمعه ، لأنه يلمح ، من ثنايا برق
 خلّب ، واجباً خفياً فوق طاقة البشر ، وقد أخلّ به ..
 إيه ، أيها الرأس الصغير ، يا ذا الشعر الذهبي ، والحيا
 الصبي ، لتلك الغريقة الآن .. هارييت ...

وعند الصباح كتب رسالة رقيقة إلى ماري يسألها أن تكون
 أمّاً لطفليه المسكينين : « إياننا » و « شارل » .. ولكن محاميه أنذره
 بأن آل وستبروك يمانعون فى حضانته لهما ، بحجة أن آراءه
 الدينية ، وعيشة الخنا التى يحياها ، كليهما يجعله غير جدير بتربيتهما

— ٢٥ —

أنى لحفلة الزواج ، دينياً كان الزواج أم مدنياً ، أن تزيد
 فى هناء حبيبين ، متفانين ؟ .. ولكن جودوين كان سروره لا
 حد له إذ علم بأن بنته ستصبح « امرأة شريفة : اللادى شلى » ..
 وبذلك أتم جودوين على نفسه احتقار شلى تلميذه السابق
 ومريده الآبق !

وكانت خمسة عشر يوماً قد مضت على انتشار جثة مسز

شلى من نهر السربنتين عند ما عقد قران ماري وپرسى على يد
 قسيس فى كنيسة سانت ميلورد، بحضور جودوين يهش ويهش،
 ومسر جودوين تتكلف البشر، وتلوح بالظفر!. ويوقعان،
 كلاهما، شاهدين على العقد!. وفى المساء اجتمع الشمل
 للعشاء من جديد فى سكنر ستريت. وكان الحفل العائلى تخيم
 عليه الكآبة. فى قاعة الطعام الصغيرة هذه طالما عاشت «فانى»
 وطالما تعشت «هاريت». كان شبحا الفتاتين المنتحرتين
 ينغصان هناء المحتفلين!

وأبى القضاء عليه أن يسلمه ولديه شارل وإيانتا بسبب أفكاره
 الكافرة ومبادئه الخطرة. وكذلك انتزعهما من أسرة جدهما
 جودوين، وعهد بهما إلى الدكتور هيوم

° ° °

اشترى شلى بيتاً فى «مارلاو».. وأنشئت فيه مكتبة
 كبيرة، ووضعت تماثيل لفينوس إلهة الجمال وأبولو إله الشعر..
 وكانت الحديقة واسعة، تلعب فيها مع وليم وكلارا شلى:
 «آلبا» بنت كليز من بيرون

وكان ما أصاب شلى أخيراً من ويلات قد خط على
 تقاطيعه.. فزاد جسمه ضموراً، وأعصابه احتياجاً، وظهره
 انحناء. وزاد بالحياة تشاؤماً وتدمراً. وكان يفكر فى وضع

تاريخ ثورة مثالية شعراً ، ثورة لا تسيل فيها الدماء ، ولا تتراكم
 الأشلاء . . وإنما ثورة من صنعة محبين . . فتجربته الخاصة قد
 دلته على أن حب المرأة ، وحده ، هو الذى يمكن أن يوحى
 ببسالة عظيمة . . .

وقضى الصيف كله فى نظم القصيد . . يبحث عن صور
 الحب فى حبيبته ماري ، وفى جزر نهر « التاميز » الصغيرة ،
 وفى لوحات السماء المتجددة سحبا قائمة ، وسحبا هاربة ، وصوراً
 صغيرة . . ثم صفاء وبهاء . .

واضطر إلى العودة إلى لندن ، عند ما عزت الدراهم ،
 وكان مكلفاً بإطعام أفواه كثيرة : ماري وولديها ، وكثير
 وبناتها . . وأسرة جودوين . . وكان يمد بمعونته كثيراً من أصدقائه
 ومعارفه أمثال ليزهنت وأسرته وبيكوك وشارل كليرمون . .
 وكان لذلك يستدين من المرايين ! . وكانت ماري ترغب أن
 يبيع شللى بيت « مارلاو » الذى تعجل شراؤه . . كانت تراه
 يشكو فيه من البرد ، وتتمنى له مناخاً أطيب وأدفأ ، كمناخ
 إيطاليا مثلاً . . فكتبت إليه فى لندن تحبذ سكنى بيت صغير
 على شاطئ البحر يتمكنان فيه من ضغط المصروفات

وكان من أسباب شكوى ماري وجود « آلبا » بالبيت .
 فقد قالوا للجيران عنها إنها بنت سيدة تعيش فى لندن بعثت

بها إليهم ، لمتحسن في الريف صحتها . . ولكن الناس جميعاً لم يلبثوا أن تبينوا من تصرفات كلير مظهر الأمومة . . ونسب بعض أهل الخير البنت إلى شلى ، باعتباره أباهاً ! . . فكادت الاتهامات القديمة تحوم حولهم ! . وتنغص عيش ماري ، مما جعلها تتمنى الرحيل إلى إيطاليا ، حتى تحمل البنت إلى أبيها اللورد بيرون . . .

وكانت أمنية شلى أيضاً أن يرحل . فروابط الأسرة ، والصدقة ، والأشغال ، قد ضربت من حوله جدراناً عالية اختنق منها . فخيل إليه أن فراره من انجلترا ، حيث فقد حقوقه المدنية بحكم كبير قضاتها ، سيجعله ، مرة أخرى ، روحاً حراً محلقاً في الهواء ، طليقاً في الأجواء . . وأن حياته في بلاد أجنبية ستكون صفحة بيضاء من غير سوء ، يستطيع أن يؤلف فيها كياناً جديداً ، كما ينظم قصيدة عصماء . .

ولما تقرر السفر طلبت ماري تعمد الأطفال في الكنيسة . فقد رأت أن الأولى لهم : بداية حياتهم ، في مستهلها ، بمراعاة العرف المتبع ، وما اصطلاح عليه المجتمع . . فوافق شلى على ذلك . وفي اليوم نفسه عمدت كذلك بنت بيرون ، وأطلق عليها اسم « كلارا ألجرا Allegra » . . .

سماء إيطاليا الصافية الأديم ، بلا سحب . . . عادت قافلة
 الثلاثة تسير نحو أرض النسيان ، والشمس والغفران . . لم يؤثر
 على سيرها السريع أنها ، في هذه المرة ، مثقلة : بالأطفال ،
 ومربيات الأطفال . . حتى وصلوا إلى ميلانو . فألقوا عصا
 التسيار في انتظار أخبار بيرون ، وكان شلى قد كتب إليه
 يعلنه بوصول ابنته . فجاء رد دون جوان : أنه لا يريد أن يرى
 كلير ، أما صغيرته ، فهو على استعداد لتولى أمر تربيتها ،
 بشرطه الذى لا يتحول عنه : أن يكون فى ذلك السيد المطلق
 وأشار شلى على كلير بأن تعدل عن طلب أى مساعدة من
 بيرون ، بدلا من أن تعهد إليه أمر الطفلة . بيد أن كلير كانت
 متكبرة ، تريد لبنتها مزايا لا يستهان بها ، وكانت شديدة الثقة
 فى المربية السويسرية « إليز » التى تولت الصغيرة ، فقررت
 أن تبعث بهما معاً إلى فينيس . وبرغم اعتراضات شلى الرقيقة
 سلمت ألجرا إلى أبيها

• • •

ولكن بيرون لم يحتفظ بالطفلة عنده إلا بضعة أسابيع . ثم
 عهد بها إلى مسز هوبنر ، زوجة القنصل الإنجليزى فى فينيس .

غير أن كليز بدأت تفرح سن الندم ، ورأى شلى أن يصحبها إلى فينس . وقصدا خفية بيت هوبنر ، حتى لا يتضايق بيرون ويسخط ، فاستقبلهما القنصل وزوجه برقة ودماثة . وبعثت زوجته في طلب المربية والطفلة . وكانت ألجرا قد نمت ، ولكنها شحبت ، وفقدت حيويتها السابقة ، وإن كانت ما زالت آية جمال . .

وجرى الحديث طويلا عن بيرون . فإنه ، بعد يومين من وصوله ، قد حصل على جندول : وخليلة ، هي «ماريانا سيجاتي» ، زوجة تاجر أقمشة ، أجرة للشاعر الكريم في بيته غرماً مفروشة . وكان لذلك خطره ، وكان له ما بعده . . ولكن تجارة الأقمشة لم تكن رائجة ! . . وكانت المرأة في الثانية والعشرين ، ذات عينين سوداوين مدهشتين ، وصوت شجي رخم ! . . أما تاجر البندقية ، فقد كان يرى «الدوقيات» تسيل من بين أصابع اللورد . . وكانت أخلاق المدينة الشهيرة تسمح ، على الأقل ، بعشيق واحد ! . .

روت هوبنر ، المرأة الرقيقة ، ذات العينين الذكيتين ، هذه الحكاية ، بالحسرة والاستطابة اللتين تبرز بهما النساء العفيفات حديثهن عادة عن الرذيلة . . وروى زوجها متحرزاً أن أهل البندقية يتناكرون أن السيد الإنجليزي لم يكتف بملمهة

واحدة للشعر ، فاكترى فى الخفاء فيلا حشد فيها منهم تسعاً ! . .
وتحدث بذلك الركبان ! . . والناس ينظرون ويعجبون ، فى
حفلات الكرنفال ، بالنساء المقنعات المتنكرات ، يتعلقن
ببيرون ، ويتصيدن أنفسهن له ! . .

وقصد شلى لزيارة بيرون فى قصره ، فاستقبله بحرارة . .
ولعل شلى كان الرجل الوحيد فى الدنيا الذى يرضى بيرون
بالتحدث إليه بجذ ، حديث الند للند ، وقدّر شواغل كبير ،
وإن اعتذر بأنه لا يستطيع التخلّى عن « ألاجرا » ، وإلا زاد
البندقيون ، على اتهامهم إياه بأنه هوأى ، تهمة الزهد فى ابنته
الطفلة . . على أنه سيفكر فى الأمر ملياً ، ويجد سبيلاً للتوفيق . .
ثم اقترح على شلى ركوب الخيل فى نزهة إلى « الليدو » . .

ورأى لشلى هذه الرمال ، ترمح فيها الجياد ، فى وسط الأمواج
ونظر بيرون إلى البندقية ، على ضوء الشفق القانى ، وقد
صارت ورداً ورماًداً . . وقال :

— إننا سنموت شباباً . . وسواء على دقت الساعة اليوم أو
غداً . . ولكننى أريد أن أستمتع بشبابى . .

وفى اليوم التالى عرض بيرون التنازل لشلى وكبير ، لمدة
شهرين ، عن فيلا له قرب البندقية ، تبقى فيها كريمته ألاجرا
بعد ذلك . فلم يسع شلى إلا قبول هذه الاقتراحات السخية . .

وكتب إلى ماري لتلحق به بلا تأخير

وكانت رحلة ماري مضنية . ففي « فوزينا » لاقت صعوبات بسبب جواز سفرها ، عاقبتها طويلاً . وكانت كلارا الصغيرة تبدل أسنانها ، وتآلم كثيراً من الحر والتعب ، وتغيير اللبن . . . ووصلت مريضة إلى « فيلا داست Este » : فيلا بيرون الموعودة . وظلت تعاني الحمى خمسة عشر يوماً . وكان طبيب البلدة غيباً ، فاعترم شلى وماري أخذ الطفلة إلى البندقية لاستشارة طبيب أفضل منه . ولكن « كا » الصغيرة أصيبت برعشة غريبة في الفم والعينين ، وظلت طوال السفر غائبة عن الصواب . ثم زادت الأعراض ، وجاء الطبيب إلى الفندق ، فلم يجد في شفاؤها أملاً . وبعد ساعة ماتت دون احتضار . . . كانت « لافورنارينا » ، آخر محظيات بيرون ، امرأة فلاحه ، وجهها مثال الحسن البندقي القديم . وكان بيرون قد ذكرها لشلى بقوله : « سوف ترى كم هي جميلة : عينان نجلوان سوداوان ، وجسم ثعباني ، وشعر متموج ، يتألق تحت ضوء القمر .. امرأة تذهب في سبيل الهوى حتى الجحيم .. إلى أحب هذا النوع من الحيوان ، وأوثره على نساء العالم جميعاً ! .. » كانت حيواناً غريباً ، لا يسلس له قياد . متوحشة يرتاع منها الخدم ، حتى « تينا » العملاق جندولي الشاعر . . . كانت

هذه المرأة غيوراً لا تطاق ، زائفة كالشيطان ، وقد أصرت على أن تستبدل بنقابها الشفاف وشالها الجميل الفساتين الحديثة ، والقبعات التي يرفرف عليها ريش النعام ، تلك التي يلتقي بها يبرون إلى النار بمجرد شرائها إياها ، فتذهب وتشتري سواها . ولكنه كان يغتفر حماقاتها ، لأنها تدخل على قلبه السرور . . فهو يحب منها : حيويتها ، ولحبتها الثينيسية ، وعنفها . كانت طبيعتها ، الفظة ، الغليظة ، البهيمية ، تريخه من الجهد العقلي . وكان شعره يتقدم بفضلها تقدماً بديعاً مطرداً ، شبيهاً بلجب البحر الخضم ، وصباة المرأة العاشقة . . .

وما كانت هذه الحيوانة الخلفة ، إلا لتسوء شلى وزوجه ، وفي خلال بضعة الأيام التي قضوها في البندقية وقف شلى على حياة يبرون عن كذب ، وحكم عليها حكماً صارماً . فالشاعر قد أباح لتهتكه العنان ، وأطلق بحارة جندوله يلتقطون له النساء من الشوارع . . ثم ازدري نفسه ، فأعلن أن الإنسان مزدري . . ولم تعد سخريته ، في نظر شلى ، إلا قناعاً رقيقاً لحيوانيته !

وأن ليبرون أن يستعيد الثميلة ، ويسترد ابنته الأوجرا . وكان الجو البارد الماطر يدفع شلى نحو الجنوب . فقد كان بحاجة إلى

الدفء واللفظ والصفاء . . كانت الأجواء المجهولة لديه ،
والمدن الحديدية عليه ، تخدع حزنه ، وتكشف كربه
وكان طريق روما يتعاطف بين الكروم التي احمرت أعناقها .
وفي كل خطوة يشهد المسافرون قطعاناً من ثيران بديعة بيضاء
كالخليب . فلما دخلوا المدينة حلق صقر هائل بجناحيه فوق
رؤوسهم . . . وراعيهم من روما جلال الحزن النخيم على الأطلال
قف بروما ، وشاهد الأمر ، واشهد

أن للملك خالقاً سبحانه ! . . .
وقصدوا لزيارة المقبرة الإنجليزية ، فبدت لشللى أجمل وأهدأ
مقبرة رآها في حياته . كان الهواء يهمس في أوراق الأشجار
المشرقة على الأجداث ، وكان أكثرها أجداث نساء وأحداث ..
فإذا لم يكن من الموت بد ، فهنا يتمنى المرء لو ينام . . .
وبعد سفر ثلاثة أسابيع وصلوا إلى نابولي ، واستأجروا مسكناً
مشرقاً على الخليج الأزرق . . وأصبحت وحدتهم الدائمة عبثاً
ثقيلاً ينوعون به . وتذكروا بلادهم ، وحنوا إلى : وندسور ،
ومارلاو ، ولندن نفسها . فما هذه الجبال الشامخة ، وهذه السماء
الصفافية ، بغير صديق ؟ ! إن مسرات المجتمع هي مبدأ
الوجود ومنتهاه . . وكل هذه المناظر ، مهما تبد رائعة ، تتلاشى
من صفحة القواد ، كدخان تبدده الرياح ، إذا ما فكر المرء

فى المشاهد المألوفة ، التى مهما تكن عادية ، أو تافهة ، فهى ممتزجة بألوان من المودة البهيجة . . .

وكانت مارى تشكو من أنها ، فى كل مكان ، تعدّ « الأجنبية » ! .. وكانت فى مستهل حمل جديد . وأصبحت كلير عندها لا تطاق . وقد غدر خادمها باولو بالمربية السويسرية ! فأرغمته مارى على الزواج منها ، ففعل وأخذها ورحل .. ثم أصيبت كلير بمرض شديد خفى ، مرض غريب لم تفهمه مارى . . .

فبرموا بنابولى ، وعادوا إلى روما . ولكن حرارة الربيع فى روما أتعبت وليم الصغير ، فأشار الطبيب بنقله سريعاً إلى الشمال . . فهمسوا بالسفر .. وإذا به يصاب فجأة بدوسنطاريا حادة . وظل شلى ، مدى ستين ساعة ، لا يترك يد ولده الصغير الحبيب . فقد كان يزداد به تعلقاً . وكان صبيّاً ذكياً ، حنوناً ، حساساً . شعره أشقر كالحرير ، وبشرته شفافة كالورد ، وعيناه زرقاوان متألقتان كعيني شلى ... وصار فى النزاع ، وما زال الطبيب يأمل فى إنقاذه . فعاش ثلاثة أيام سوياً ، ثم قضى نحبه ، والشمس رأد الضحى . . .

ودفنه فى المقبرة الإنجليزية ، التى كان أبوه عندما مر بروما قد أعجب برونقها وهدوئها . . ورأى شلى ولده يختفى تحت رقعة من الأرض ، زانها الزهر والعشب والشمس

« فاني » .. « هارييت » .. « كلارا الصغيرة » .. « وليم »
 لقد خيل إليه أنه محوط بجو موبوء وبيل ، يصيب كل
 الذين يحبهم ، واحداً بعد واحد !

أما ماري فلأنها ، في هذه المرة ، خرت صريعة ، وتخلت
 عن النضال . فأخذها شلى إلى الريف ، وأسكنها فيلا جميلة . .
 وكان قد استوى عندها كل شيء . . كانت تفكر دائماً ،
 وترى تينك القدمين الصغيرتين تجريان على رمال شواطئ
 نابولي ، وتسمع العبارات الساذجة الشائقة ، التي تعبر أجل تعبير
 عن : الحب ، والعُجب ، والمرح . . وتجلس جامدة في مكانها
 تحديق بعينها في الفضاء البعيد ذاهلة ، لا تخرج عن صمتها
 إلا لتزور قبر وحيدها . .

وكان شلى كذلك يشكو منها إليها ، ويألم . . ولم يصبه ما
 أصابها . . فقد كان — وكأنه « آرييل » : روح الهواء ،
 المخلق في سماواته — ينظم الشعر ، ويصف نضال الروح ضد
 المادة ، نضال الرجل الحر ضد المجتمع . وإذا ما هبت عليه أحزان
 ماري سأل الرياح أن تجعل منه قيثارتها ، وتنفخ فيه من روحها !
 ولما آن لماري أن تضع حملها قصدوا فلورنسا ، ليكونوا على
 مقربة من طبيب بارع . ولكن أبرع طبيب كان فلورنسا نفسها ،
 المدينة التي ليست للوحدة فيها وحشة . فيها اجتمعت أرواح

الشعراء والفنانين : يعيش المرء فيها مع « دانتى » ، ويجلس إلى جانب « سافونارولا » ، ويرى « جيوتو » يعبر السبيل !
 فى هذا الجو الروحى استردت مارى بعض مزاج الحياة..
 واختلطت فى المنزل العائلى بالسكان . وجاء الوضع سهلاً سريعاً .
 وعند ما رأت نفسها ، من جديد ، وعلى ذراعيها طفل ، تبسمت لأول مرة منذ مات وليم ، ودعت ولدها : « برسى فلورنس » ...

— ٢٨ —

بدأ شلى يشكو ألماً فى جنبه . فقد أثر فيه هواء جبال
 الأبنين ، الذى يهب بشدة فى الشتاء على فلورنسا . . ونصحته
 الطبيب بالسفر إلى بيزا . . وهناك لحق به أحد أبناء عمه :
 « توم مدوين » ، وهو ضابط سابق فى جيش الهند ، مفتون
 بالأدب ، خطر له أن ينشد عشرة الأديب الوحيد فى الأسرة ! ..
 وقد عرّف شلى بزوجين ظريفيين : إدوارد وليامز وقرينته .
 وكان وليامز هذا ، مثل مدوين ، ضابطاً قديماً فى فرقة الفرسان
 بالهند ، ثم اعتزل الخدمة . وكان شاباً غاية فى الصراحة والتبسط ،
 شديد التطلع للمعرفة . فأعجب به شلى ومارى ، و بدت لهما
 زوجته الجميلة آية فى رقة الحاشية ودمائة الطبع . وكانت
 موسيقية بارعة . وأصبح البيتان على ود عظيم . .

وانضم لصحبته إيرلندي يدعى « الكونت تاف » . ويوناني هو الأمير « مافرو كورداتو » . وقسيس إيطالي شيطاني عجيب ، يدعى الأستاذ الأب الموقر « باكياني Pacciani » ، ويطلق عليه اسم « إبليس بيزا » : أسقف بلا دين ، وبروفسور بلا كرسي ، ومن كبار هواة النساء واللوحات والأنتيكات ، وخبير ، ومثمن ، وسمسار عالمي يجد دائماً قصراً للإيجار ويأخذ أتعابه من المستأجر ومن المالك ، ويوصي بمعلم للغة الإيطالية يقتسم وإياه أجر الدروس ، ويهمس في أذن السائح الإنجليزي المار بالبنديقية بعنوان « المركيز » الذي يريد أن يبيع لوحة زيتية قيمة قديمة ! . ثم هو الرجل الذي يرفع الكلفة ويصبح على ألفه وثيقة مع أى بيت بمجرد أن يضع قدمه فيه ! .. وكان هذا القس يطلق على كل من مارى وصاحبها اسم : « الإنجليزية الجميلة » ، ويروح عنهما بحكايات العائلات الكبيرة فى بيزا ، وأسرار سيدات الطبقة الراقية ، اللواتى هو لمن الصديق الوديع ، يستودعنه خوالج ضعفهن ، وهو لمن الأب المحترم ، يفضين إليه باعترافهن ! . . .

وأثرت إحدى روايات القس باكياني فى شلى تأثيراً شديداً : — الكونت فيثياني من كبار أعيان فلورنسا ، تزوج ، للمرة الثانية ، من امرأة تصغره بكثير . . وكان له من زوجته

الأولى فتاتان فتانتان ، غارت الكونتس الجديدة من جمالهما ، فأقنعت زوجها بإرسالها إلى بيزا ، وإدخال كل واحدة منهما في دير ، حتى تجدا عروسين يقبلان البناء بهما بلا مهر !

وكان البروفسور باكيانى ، الذى عرف الفتاتين منذ طفولتهما ، يتحدث بحماسة عن جمالهما الرائع ، وروحهما الجذاب ، ونوه خاصة بالكبرى التى كانت نابغية . . قال :

— يا للمسكينة « إميليا » ! .. إنها هناك ، بين جدران الدير ، كأنها عصفور فى قفص . . ترى شبابها يبلى بلا هوى ، هى التى خلقت للحب والجوى ! .. بالأمس ، فضحت بالماء زهوراً فى صومعتها ، قائلة لها : « أجل . . أنت ولدت لتنبئى ، وتورق . . أما نحن ، المخلوقات المفكرة ، فقد جبلنا لتتحرك ، ونعمل ، لا لنذبل ، ونيبس » . . وهذا الدير ، دير سانت آن ، مكان فظيع ، ترتجف نزيلاته الآن من البرد !

هذه الرواية أيقظت فى شلى مشاعر الفارس الشارد المغوار ، فوجه ألف سؤال ، وأظهر أشد الاشمئزاز من الكونت الشيخ ، وغاية الاهتمام بالشهيدة الحميلة . . .

لم يستطع باكيانى أن يقاوم لذة الجمع بينها وبين شلى . . تلك اللذة التى تصيب بدائها بعض العجائز ، فيجبون أن يروا كل الشباب الأحبة : اثنين اثنين . . فاقترح على شلى أن

يأخذه إلى دير سانت آن . . .

لم يكن القس قد بالغ في وصف جمالها ، فهذا شعرها الأسود معقوص في عقدة بسيطة ، كإحدى إلهات الإغريق الملهمات .. ومحيّاها كامل الحسن ، وشحوب بشرتها يزيد في تألق عينها النجلاوين ، السوداوين ، الممتلئين بنعاس الاشتها . . . ذلك الذى تفوق بعض الإيطاليات فيه الشرقيات . . .

أحس شلى أنه يحبها . ولم يكن الحب عنده اشتهاً بديناً ، وإنما هو حاجة إلى التضحية بالنفس لمن تعجب به . . فهو دائماً يعيش فى تلك الأسطورة التى تمثل امرأة فاتنة مضطهدة يكون هو لها الفارس المنقذ . . . أسطورة كانت فى الصميم من كل مشاعر الحب التى عاناها ، والتى حملته على خطف هارييت ، لينقذها من اضطهاد أبيها . . . والتى جعلته يحب ماري لأنها كانت تعسة .. مزيج من النسب ، التى يجعلها هو نفسه . . من الاشتها والشفقة . . من الخيال والرحمة . . عاطفة عرف كيف ينقيها ويرفعها ، وعرفت كيف تحرك وتثير كوامن قوته الخالقة للشعر ، إلى أقصى حدود الخلق والإبداع ... ولما دخلت إمبيليا قاعة الاستقبال اتجهت إلى عصفور هناك فى قفص ، وقالت :

— « أيها الطائر الصغير المسكين ! أنت تموت من الضنى ! .. »

ولشد ما أشفق عليك ، وأرثى لك ! . لشد ما تشكو وتعانى ، إذ
تسمع أترابك ، فى جماعات ، تناديك ، قبلما ترحل على
بساط الريح إلى بلاد مجهولة ! .. أنت مثلى ، كُتِبَ عليك أن
تقضى هنا ، فى هذا السجن ، حظك الكئيب من الأيام . .
أواه ! .. لماذا لا أستطيع إطلاق سراحك ، وإخلاء سبيلك ؟ ! »
فرأى فيها شلى امرأة نابغة شاعرية . ولم يخف عن
مارى العواطف التى خالجتها ، فعرفت فى هذا الحب
مجرد تأمل فى « الجمال الأعلى » . . وكانت مع ذلك تؤثر
أن لو اتجه هذا التأمل إلى تمثال ، أو لو أن شلى فعل ما فعله
« دانتى » ، لم يتح له قط أن يخاطب معبودته « بياتريس » . .
على أنها صحبتته فى زيارة السجينة الجميلة راضية . . .
وراح شلى يبنى حول إميلييا عالماً من تلك العوالم الخيالية ،
التي يحب الفرار إليها والالتجاء .. يضع لها قصيدة حب عظيمة ،
على نهج أشعار دانتى ، أو أناشيد شكسبير . . يجعل فيها من
إميلييا : صورة ، ليست إلا آلاء لجمال السجينة ، وتمجيداً
لشخصها المعبود ، الذى يختلج إحساساً ونعماً ، وراء الجدران ،
اختلاج البدر وراء السحاب . . .

وبينا كان هذا العاشق الأفلاطونى يبنى عالماً بعد عالم من
خيالاته ، تلقت إميلييا من أبيها الكونت فيثيانى رسالة يقول فيها

لأنه وجد زوجاً يرضى بها بلا « دوطه » . ولم يكن في هذا الزوج المدعو « بيوندى » ما يغرى به . . فهو يعيش في قصر بعيد ، تكتنفه المستنقعات . لم تره قط ، وليس لها أن تراه قبل يوم الزفاف . وكانت هذه الخطبة على الطريقة التركية القديمة مما تسمّى له إميليا . . ولكن ماذا تنتظر بعد من دهرها ؟ . . وقبلما يتم شلى قصيدته عرف أن إميليا تزوجت ! . .

— ٢٩ —

ظلت كلير ، خلال الأيام الأولى التي تلت سفرها من البندقية ، تتلقى أخبار ابنتها اللجرا بانتظام على يد هوبنر وزوجته . فعرفت أن الصغيرة تشكو البرد ، وقد أصبحت هادئة رزينة ، كما لو كانت امرأة كبيرة . وكان من رأى هوبنر نقلها من فينيس . ولكن كان من المستحيل مفاتحة أبيها في أمر نافع ، وهو الذى يزداد استهتاراً واندفاعاً في الدعارة !

ثم انقضت بضعة أشهر بلا خبر . فاشتد القلق بكلير ، وكتبت إلى هوبنر الرسائل تلو الرسائل دون أن تحصل على رد . . ثم علمت بحدوث انقلاب كبير في حياة بيرون ، فقد أصابه مرض خطير ألزمه الفراش . واضطر إلى طرد الفتيات المحتلات اللواتى أضنين حاله ، ونهين ماله . . ولم يكذبيل حتى شهدته

ثانية محافل فنيس ومجتمعاتها ، وهناك لقي أجمل امرأة في الموسم ، الكونتس الشابة تريزا جويتشيولى ، الحسناء ، الشقراء ، الشائقة ، ذات السبعة عشر ربيعاً . . . التى تزوجت لعامها من كونت نبيل شاب قرناه . ومن اليوم الأول دس بيرون فى يدها ورقة كانت موعداً . وكان ذلك الذى قال بحبه إياها شاعراً عظيماً ، وفتياً جميلاً ، وغنياً نبيلًا . . . وهكذا أحاطت بها كل العوامل التى تجعل للحياة طعماً ، فاستسلمت له ، بغير تمنع . . .

وبعد بضعة أيام أخذ الكونت جويتشيولى زوجته إلى « رافنا » . فتوسلت إلى بيرون أن يلحق بها .. وكان رأيه : « أن الساحرة تنسى أنها تستطيع من قبل أن تصفر لأى رجل ، فيتبعها إلى أى مكان .. أما بعد ! . . . »

كان لا يطبق فكرة الحب الهوام ، الثابت ، الطويل المقام .. فلم يحرك ساكناً . . . وكان برفضه فخوراً !

فكتبت إليه من رافنا بأنها مريضة جداً ، فلم يخب النداء إلى الشفقة حيث خاب النداء إلى الحب . فلبى النداء فى الحال ، وشد إليها الرجال . . . إن الليبات من النساء ، كاللادى بيرون ، أو كلير ، يتعبنه ويضجرنه . كان يحتقرهن إلى حد لا يسأل معه خليلة له : أن تكون رفيقة فكر ، أو خدينة روح . وكذلك زوجات الحيازين ، ونساء تجار البندقية ، هن من

طبقة غير طبقته ، ومن نوع دون نوعه بكثير . . لكن الكونتس جويتشيولى ، وقد جمعت بين البلاهة الحنون ، ودمائة الأصل الكريم ، أمسكت فيه ، دون عناء كبير ، بتلايب دون جوان ، وعلقت بحبالها جواب الآفاق . . وأصبح دون جوان ممرضاً مخلصاً ، ملازماً فراشها ، يناولها الدواء ، ويدوب من العطف والاشتهاء . ولما اضطرت الغالبة المغلوبة أن تغادر راقنا إلى پولونى ، مع زوجها ، تبعها . . لقد أصبح لها « الفارس الخادم » المقطور فى ركبها !

علمت كلير بهذه الحكاية كلها ، وأن بيرون قد أمر بإحضار اللجرا إلى بلدة پولونى . وراعها أن ترى بنتها تعيش فى بيت خلية بيرون الحديدية ، فكتبت خطاباً محتدماً ، تطالب فيه باسترداد بنتها . فجاء رد بيرون بأنه لن يتركها بعد الآن لتموت من الجوع ، أو من الفاكهة الفجة . . أولتنشأ فى بيت شلى على الاعتقاد بأن الله غير موجود . . وقال إنه ينوى أن يضعها فى دير ! . . فوجهت كلير إلى بيرون رسائل يائسة ، لاذعة ، تكاد تكون مهينة مقدعة . . فكتب إلى شلى يشكو هذا منها ، فرد شلى عاتباً عليه تأثره بهذه السفاسف من كلير التى حملها إلى ذلك شقاؤها ، وحرمانها من بنتها ، وأنها أولى بالعطف والصفح منها بالعقوبة والملام . وكان شلى فى حاجة إلى هذا الترفع فى وجهة النظر ،

ليتغلب على ما حوله من نكد العيش : ماري تزداد أعصابها هياجاً، يوماً بعد يوم . وجودوين يرهقه بمطالبه المالية ، حتى لقد اعتزم ألا يليها بعد !

ولما كانت رسائل الملام والمطالبة بالمال ، التي يوجهها وجودوين إلى ابنته ماري ، تنكد عيشها ، فقد انبرى شلى ينذر هذا الفيلسوف العجّز ، بأنه ، منذ الآن ، سيحول دون تسلم ماري رسائل أبيها ، إذا ما ظلت رسائله وقفاً على شؤون المال والسؤال ! « آرييل » ، روح الهواء ، قد بدأ يحدت ويشدد ، ويعالج شؤون الغبراء ! ..

ورحلت كلير أخيراً إلى فاورنسا ، لتشتغل في وظيفة مربية . . وكتب إليها شلى رسائل عاطفية طويلة ، لكنها بريئة ومع ذلك لم يطلع ماري عليها ، ورجا كلير ألا تشير إليها عندما تكتب إلى أختها . وكان لهذا الإخفاء غضاضة وحزة في نفسه ، كان الحب عنده اشتراكاً مشاعاً في الأفكار والأفعال ، بحيث لا تكون ثمة حاجة بين المحبين إلى تفسير . . بيد أن الحياة علمته أن الكمال لا وجود له ، وأن عليه قبول ما هو دون ذلك .. وعلمته أن الحقيقة النقية ، الخالصة ، الصحيمة ، هي بالنسبة لبعض النفوس سم زعاف . .

- ٣٠ -

من ر . ب . هوبنر ، إلى اللورد بيرون

فنيس - ١٦ سبتمبر ١٨٢٠

أراك مندهشاً ، وبحق ، من تغيير رأيي في « شيلو »^(١) .
ولكن إذا أنا كشفت لك عن السر الشنيع ، فذلك لاعتمادى
على أنك ستخفى أمر الإحاطة به عن شلى وأهله ، لإكراماً
لزوجته التعسة ، ورعاية لى ولزوجتى . وإنى واثق أنك
عندما تعرف الحقيقة سوف تتشدد فى تصميمك
النبيل على ألا تعهد بالأجرا إلى أمها . . . إنه عندما كان
آل شلى يقيمون هنا كانت كلير حاملا من شلى . ومهما
يكن من الأمر فقد رحلوا إلى نابولى ، حيث دعى إليها شلى ،
ذات ليلة ، ليكون إلى جوار كلير المريضة جداً . ووجدت
زوجته بالطبع غريبة فى أن يدعى هو من دونها . ! وبعثوا فى
طلب مولدة نفحهاها بالمال لتحمل المخلوق المنكود الذى جاء إلى
الدنيا إلى ملجأ اللقطاء بعد نصف ساعة من مولده . .
واضطر إلى شراء صمت الطبيب كذلك بمبلغ جسيم !
وظلت مسر شلى ، خلال مرض كلير ، فى أشد القلق

(١) كناية أطلقها بيرون على شلى

عليها ، دون أن تستطيع الدنو منها . فقد كان هذان الفظَّان يعاملانها بغلظة ، وعملت كثير ما لا يعمل لتحمل شلى على هجر زوجته المسكينة التى لم تعرف شيئاً من مغامرة نابولى . وقد عرفنا هذه الحكاية كلها من المربية السويسرية « إليز ! »

أعتقد ، بعد هذا ، أنك لا تدهش من سوء ظنى بشلى . إنى أعترف بكفايته ومواهبه . . لكنى ما كنت أتصور — كما تقول — أن يكون الرجل « مهوساً ضد الخلق » ويكون له شرف .. وقد سمعت كلاماً عن شرف اللصوص ، لكن هذا لا يعنى إلا مصلحتهم الذاتية . . كذلك مهما يكن من مصلحة شلى الظهور بمظهر محترم ، قدر الطاقة ، مع الآراء التى يبيدها علانية ، فمن الجلىّ عندى أنه لا يستوحى الشرف فى أى فعل منفعاله

من بيرون إلى هوبنر

حكاية « شيلو » صحيحة ، وإن كانت « إليز » ليست إلا « شاهد ملك » . . وهذا هو نحوهم ومجرى حياتهم . ثق أننى سأستمع إلى نصحك . .

جاء شلى إلى رافنّا ، فقد دعاه بيرون ليحدثه فى شؤون هامة .

فوجد شلى أن دون جوان فى خير حال . . فالوجه الذى كان
مضى من الإسراف فى الموبقات قد استرد نضرتة . ذلك أن
حكم الكونتس تريزا جويتشولى قد أنقذه من دعارة البندقية المشينة
واستقبله بيرون بترحاب وحفاوة حارة . وقضى الصديقان
الليل كله فى تلاوة أشعار بيرون ومناقشتها . وبدأت لشللى أغاريد
دون جوان الجديدة غاية فى الإبداع . وكان احتكاكه بعقريه
بيرون يحمله دائماً على القنوط . فقد كانت أشعاره ، بجانب
أشعار بيرون الجزلة العامرة ، تبدو له سقيمة . فيقول لبيرون
إنه يراه خليقاً بوضع ملحمة تكون لجيلنا هذا بمنزلة الإلياذة
للإغريق . وبيرون يتظاهر باحتقار الأجيال القادمة ، وعدم
الاهتمام بالشعر إلا إذا عادت عليه القصيدة بألف من الجنيهات !
ولم يكن بيرون يتحدث إلا عن أشعاره . ومنذ أول يوم ،
وبكل مظاهر الود الصادق ، روى لشللى حكايات الفضائح التى
تجرى بين التزلاء الإنجليز فى إيطاليا . وأطلعته شلى على الخطاب
الذى يتضمن اتهامات المربية السويسرية إليز . وقال إنه لم
يصدق قط شيئاً من تلك الحكاية السخيفة ! . .

اضطرم قلب شلى حزناً ، وقبض رجاءه من الخير فى الدنيا .
فكتب من فوره إلى امرأته يخبرها بما تقولته عليه إليز ، ويرجوها
أن تكتب إلى هوبنر رسالة تدحض فيها هذا الاتهام ، وتبرهن

على كذبه .. واستجابت ماري لرجائه ، وكتبت الرسالة المنشودة ، وأرسلتها لزوجها ، لكي يبعث بها إلى هو بن بنفسه بعد أن يقرأها . كانت المسألة الهامة التي أراد بيرون أن يحدث شللى في صدها هي مصير اللجرا إذا ما غادر بيرون مدينة رافنا . فالكونتس جويتشوى ترغب في السفر إلى سويسرا ، وبيرون يفضل البقاء في توسكانيا .. ورجا من شللى أن يكتب إلى الكونتس ، ليصور لها حياة فلورنسا وبيزا بطريقة جذابة ، لكي تقبل الذهاب إلى هذه أو تلك ..

وجاء خطابه من قوة التأثير بحيث فعل في الحال ، فعله . فتقرر بغته سفر بيرون وصاحبته إلى بيزا ، حيث يعيش شللى وزوجه . أما اللجرا فقد قبل بيرون أخذها معه ما دامت كلير ليست هناك

وذهب شللى قبل مغادرته رافنا لرؤية الطفلة في دير « مانيا كافاللو » . فوجدتها زادت طولاً ، ورقة ، وشحوباً . يتهدل شعرها الأسود الجميل في حلقات على كتفها . وبدت بين رفيقاتها كمخلوقة من جنس أرقى وأنبىل ... وحل لون من الجلد الساهم محل حيويتها السابقة . وكانت الخلة البارزة فيها ، في نظر شللى ، هي الغرور ، كانت تربيتها ناقصة ، لكنها تحفظ صلوات عديدة عن ظهر قلب ، وتتحدث عن الجنة ، وتحلم

بها ، وتعرف قائمة لا نهاية لها بأسماء القديسين . . وكانت هذه
هى التربية التى تروى لبيرون . . .

— ٣٢ —

أثار قرب تشريف اللورد الشهير ، فى نوادى بينزا ، ماثيره
عادة الرحلات الملكية . واستأجرت ماري ، كما رغب إليها شلى ،
أجل بيت خال فى البلد : « قصر لانفرانكى » . وما لبثت أن
بدت الطلائع ، فوصلت الكونتس جويتشيولى مع أبيها الكونت
جامبا . . واستقبلهما شلى وماري . فبهرتما ، وطابت لهما ، هذه
الحسنة الإيطالية الشابة ، الفياضة العاطفة ، الساذجة . . فقال شلى :
— إنها امرأة رائعة الجمال ، وإذا كنت أعرف شيئاً من
طبيعة البشر ، ومن طبيعة صاحبي بيرون ، فلسوف تندم يوماً ،
إن قريباً وإن بعيداً ، على طيشها . .

وأخيراً جاء دون جوان نفسه ، وأصبح هو المحور
الاجتماعى لفريق بينزا الصغير ، وظل شلى المحور المعنوى . .
فكانوا يقصدون بيرون تطلعاً وإعجاباً ، ويقصدون شلى
ميلاً وعطفاً . وكان شلى ينهض فى ساعة مبكرة جداً ،
ويقرأ حتى الظهر : « جيته » ، أو « سبينوزا » ، أو « كالدرون » . .
ثم ينطلق إلى غابة الصنوبر ، يعمل فى هدوء تام حتى المساء .

في حين ينهض بيرون من رقاده عند الظهر ، ويتناول فطوراً خفيفاً ، ويخرج للتنزه على حصانه . ويتمرن على إطلاق غدارته . وفي المساء يزور خليلته . . ثم يعود في الساعة الحادية عشرة ، فيعكف على العمل : يظل ينظم حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً . وعند ما يأوى إلى فراشه ، محمواً ، مهتاجاً ، ينام نوماً متقطعاً ، ويبقى في السرير ضحوة النهار

وهرعت إليه الخالية الإنجليزية في بيزا ، لا يمالك أشد المترمتين أنفسهم من الشوق إلى هذا اللورد المطبوع الأصيل ، الذى يحمل إليهم ، في أرض أجنبية ، لمحة شائقة من معرض الخيلاء البريطاني !

كان شلى يتضجر من المجتمعات ، ولا يخفى ضجره وسأمته .. وكان عندهم روحاً محلقاً في أجواء علوية ، تنشده كمال البشرية ! .. وهو أشد إيماناً بالفداء منه بالخطيئة الأصلية ، مما لا يكاد يغتفره المجتمع اللاهى ، أو يرتاح إليه ! ..

وكانت السيدة المرحمة « مسز بيكت Beckett » تقيم حفلات راقصة ، لأنها ، كما يقول بيرون ، « مبتلاة بسبع فتيات ، كلهن في السن التى لا بد فيها لهذه الحيوانات من أن ترقص من أجل معاشها ! » ..

وتصر مارى على أن تشهد إحدى هذه الحفلات !

وتذهب يوماً إلى الكنيسة الإنجليزىة ، لسماع الوعظ .. فبروعها
أن التمس البروتستانتى يحمل على الملحنين ، ونظره لا يفارقها ،
بطريقة ظاهره .. حتى إنها ، رغم رغبته فى الامتثال ، أبت
عليها كرامتها ، كزوجة لشللى ، أن تعود كربة أخرى !
وكانت هذه الشواغل الاجتماعىة ، والحفلات الراقصة ،
والمآدب الخافلة ، تلوح لشللى مبتذلة إلى حد لا يتصوره عقله ..
هذه الحياة الطائشة ، بدت له ، من قبل ، إجراماً ، وهو
حدّث فى سن العشرين . وها هى ذى الآن تبدوله أشد نكراً ،
وأدعى إلى الاحتقار .. وكان يهرب من عتب ماري إلى دار «وليامز»
حيث يحس أنه يعثر ثانية على الانسجام الروحى ، والجو الحنون ،
الذى كان ألزم ما يكون له . كان إدوارد وليامز رجلاً مرحاً ،
كريمًا ، ليس فيه من الصغار ذرة . أما زوجته جين فكانت
رقبها ، ونعموتها ، وهدوء حركاتها ، وشجى صوتها ، مما ترتاح
إليه النفس ، كما ترتاح إلى الحديقة الغناء .. ولو كان شللى
يومئذ فى سن العشرين لما راقته بمقدار ما تروقه الآن .. كان إذ ذاك
يحلم بعذراء متحمسة بأسلة .. بيد أنه الآن لا ينشد غير نعمة
الغفران والنسيان ..
كانت تغنى .. فيحمله صوتها الحسيل بعيداً عن ذكرياته
الآسية ، وعيشته الزوجية الفاترة ..

وكان إدوارد وجين زوجين متحابين سعيدين ، وكان لا بد
لهما من شلى ، « آريل » اللفى ، « روح الهواء » ، الذى يخفق
ويحلق ويدور حولهما .. فلا بأس من أن يحوم روح نقى ، أسير ،
حزين ، كالحارس ، حول هناء المحبين . . .

وكثيرا ما تحدثا إلى شلى عن صديق لهما يدعى « تريلاوفى » ،
رجل عجيب ، جوّاب بحار ، وقرصان .. بلغ من مغامراته أن
قطع الأرض طولا وعرضا ، رطباً ويابساً ، ولما يبلغ التاسعة
والعشرين . وكان شديد الرغبة فى اللحاق بجاعة بيزا ، فهو يكتب
إليهما : « هل ، إذا جئت ، أستطيع التعرف بشلى ؟ ! .. وقبل
كل شيء آخر ، هل أستطيع معرفة بيرون ؟ .. أفى الإمكان
الاقتراب من دون جوان ؟ .. »

فيردان عليه : « سترى شلى حتماً ، لأنه من أبسط الناس . .
أما بيرون ، فهذا أمر يتوقف كله عليك . . »

ولما جاء تريلاوفى ورأى شلى لم يكذب يصدق أن هذا الوجه
النسائى الناعم هو أيضاً وجه رجل نابغ ثائر ، يقذفه الناس فى
انجلترا كأنه غول مخيف ، ويجرده كبير القضاة من حقوقه
الأبوية . . . كذلك أعجب شلى ، من جانبه ، بهذا الرأس
المتوحش الصلب ، وهذا الشارب الأسود ، وهذا الوجه الجميل
الذى يكاد يكون عربياً . . وبلغ من دهشتهم معاً أن لم يجدا

ما يقولانه . . وأرادت جين الخروج من هذا الصمت المحرج ،
فسألت شلى عن الكتاب الذى بيده ، فقال :

— إنه Magico Prodioso لكالدرون ، أترجم منه فقرات
فطلبت إليه أن يقرأ لهم ما ترجمه . . فارتاح شلى لتخلصه
من واجبات التعرف التى ترعجه ، وكأنها تدور فى عالم غير
حقيقى ، ففرح بالخلاص . . وطفق يترجم من الكتاب المفتوح
بأسلوب عذب ، وبعبارة جزلة ، بحيث لم يعد يخالج تريلاوفى شك
فى نبوغه وعبقريته . . وانتهت القراءة

وفى اليوم التالى أخذ شلى معه تريلاوفى لزيارة بيرون .
فرأى فيه تريلاوفى ما يراه الناس جميعاً : كل مظاهر العبقرية . .
غير أن حديث الرجل العظيم قد راعه بتفاهته . .

وخرجوا فى نزهة طويلة . . بدت فيها براعة بيرون وشلى
وتريلاوفى جميعاً فى إطلاق النار على الهدف . وفى عودتهم تحدثوا
فى الأدب ، ورووا الشعر . . وقال بيرون لتريلاوفى :

— أعترف بأنك كنت تتوقع أن تجد فى : « تيمون »
الحكيم الأثينى ، أو تيمورلنك الجبار التترى . . وأنتك دهشت
إذ وجدت رجل مجتمع ، لا يعرف الجدل ، ويضحك من كل شيء
ثم ردد : « الدنيا حزمة من العلف ، والناس حمير تتجاذبها » ! ..

الملاح الذى جاء بيذا ليعجب بالرجلين العظيمين ، سرعان ما ألغى نفسه محل إعجابهما !

وكان شلى يستشير تريلاوفى فى اصطلاحات البحر ، ويرسم وإياه ، على رمال شاطئ الأرنو : المراكب وأشرعتها ، والخرط البحرية . ويقول : « لقد أخطأت استعدادى ، كان ينبغى لى أن أكون ملاحاً » . . . فيرد عليه تريلاوفى بقوله : « رجل لا يدخن ، ولا يحلف ، لا يمكن أن يكون ملاحاً ! » . . . وكان بيرون ، القرصان الخيالى ، يود لو تعلم من القرصان الحقيقى : عادات المهنة ، وتقاليدها . . . ويبذل الجهد أمامه للظهور بمظهر الجرة والمجازفة !

ولما أدرك تريلاوفى تأثيره فى بيرون حاول الانتفاع بذلك ، ليخدم شلى . فانتز يوماً فرصة ركوبهما الخيل معاً ، وقال له : — أتعرف أنك تستطيع خيراً كثيراً لشلى ، بكلمة طيبة عنه ، فى أحد مؤلفاتك القادمة ، كما سبق لك أن فعلت مع كتاب دونه كفاية ؟

— لكل مهنة أسرارها ، يا تريلاوفى . فإذا نحن مدحنا كاتباً محبوباً فإنه يرد إلينا ما دفعناه من نفس العملة : يرد رأس

المال وأرباحه . أما شللى فهو استثمار سيئ ؟ ! .. من ذا الذى يقرأ شللى ؟ .. فضلاً عن أنه إذا عدل عن بحوثه المعمّاة ، فيما وراء الطبيعة ، والجدل فى الإلهيات ، فلن يعود بحاجة إلى ..
— ولكن لماذا يعامله أصحابك بلا اعتبار ؟ وهو لا يقل تربية

عنهم . . . فقيم نفورهم منه ؟

فابتسم بيرون ، وهز رأسه ، وهمس فى أذن تريلاوفى قائلاً :

— ليس شللى مسيحياً

— وأصدقاؤك ؟ وأنت ؟ .. تالله لو لقيت إبليس على

مائدتك لعاملته كواحد من أصحابك ! ..

فحدجته بيرون بنظرة قاسية ، ليرى هل لكلامه وملامه

خبيء ... ثم قال :

— كان إبليس من الملائكة ، قبل أن يأبى ويستكبر ! ...

وكان تريلاوفى يستعرض هذه الحال ، مع وليامز وزوجته ..

قال لهما يوماً :

— كأنى بيرون يغار من شللى ، فى حين أن « مورى » ،

ناشر كتب بيرون ، يستغيث بالبوليس لحماية داره من ازدحام الجماهير

فى كل مرة ينشر فيها نشيداً جديداً من « شايلد هارولد » .

بينما شللى المسكين لا يجد عشرة قراء .. بيرون ، له : الأصل

الرفيع ، والمال الطائل ، والجمال ، والمجد ، والحب !

فقال وليامز :

— أجل .. لكن بيرون هو عبد رقيق لأهوائه ، بينما شلى يعرض نفسه لتيار النهر الجارف ، ويأبى على التيار أن يحرقه ! .. وله فكر ، وله مبدأ . أما بيرون ، فيعز عليه أن يكون له من ذلك شيء لساعتين متواليتين .. وهو يعرف ذلك من نفسه ، ولا يغفره لها . وهذا ما تشعر به من لجة الظفر والشماتة التي يتحدث بها عن مصائب شلى ...

فقالت جين :

— إن بيرون طفل مدلل .. ولكن لا هو ولا شلى يعرف الناس .. شلى يحبهم أكثر مما ينبغي .. وبيرون لا يحبهم كفاء الحب
فقال تريلاوني :

— إن ما يروع في شلى : أن ليست له عند نفسه قيمة .. منذ أيام عبر لى عن أسفه لعدم معرفته العوم .. فقلت له : « جرب .. واستلق على ظهرك ، فإنك تعوم .. » .. فلم أكد أقولها حتى خلع ملابسه ، وقفز إلى الماء بلا تردد .. ولكنه هوى رأساً إلى أعماق النهر ، ولولا أنني أسرعرت بانتشاله لكان من المغرقين .. فتنهدت جين .. لأنها لم تكن تجهل أن فكرة الانتحار تخامر شلى . وهو كثيراً ما يردد : « كل الذين أحبهم قد ماتوا غرقاً » — ولكنه مع ذلك لا يبدو شقياً ..

— لا ، لأنه يعيش في أحلامه . أما في الحياة الحقيقية ،
 فهل تظن أنه لا يألم من عجزه عن نشر آرائه ومؤلفاته على
 الناس؟ وهل تظن أنه لا يألم من تعاسة حياته الزوجية؟ إن الموت
 لا شك يبدو له كالقنطرة من كابوس مزعج . . . وعنده أن
 « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . . »

— إنه يؤمن بحياة أخرى . . وكل الذين يصفونه بأنه ملحد
 لا يعرفونه . . .

وبينا كان هؤلاء التلاميذ المريدون يتحدثون عن الأستاذ
 الغائب ، كان هو يعمل في غابة الصنوبر في ضواحي بيزا . .
 ينسى ، في أحلامه ، ساعة العشاء . . بل ينسى ذات وجوده . .
 ينظم الشعر في تمجيد عروس روحه الجديدة : « جين » . . .
 الأشجار كتبه . . لا يحب وهو ينظم أن يرى أو أن يسمع أحداً . .
 وليس في البيت الوحدة التي ينشدها ، فالأبواب تفتح وتغلق ،
 والأجراس ترن ، فتهرب من رنينها أشباح الرؤى ، وعرائس الأحلام !

— ٣٤ —

لم يصدق بيرون وعده لشلى بإحضار ألاجرا إلى بيزا . .
 وجاءت كلير من فلورنسا لتتنسم ريح بنتها ، وأوجست خيفة ،
 لما علمت ببقائها في دير مانيا كافاللو ، ذاك الذي صورته لها

أصحابها الطليان في صورة بشعة . وحملها عذاب الأمومة على فدية تكاد تكون علوية : فكتبت إلى بيرون أنها تقبل ألا ترى اللجرا مدى حياتها ، إذا هو رضى بإدخالها مدرسة لإنجليزية محترمة ! . فلم يرد عليها !

ونصح بعض الأصدقاء كلير بخطف بنتها . ولكن شلى أشار عليها بالصبر . ثم سعى لدى بيرون . . غير أن بيرون لم يكده يسمع اسم كلير حتى هز كتفيه ضيقاً بكراها . فأخبره شلى بما سمعته كلير عن الدير وسوء حاله ! . ووصف له قلق كلير ومخاوفها

فارتسمت على وجه بيرون ابتسامة شيطانية من الرضى والارتياح . . . ويشت كلير يأساً مريراً ، فدعاها شلى ومارى لقضاء شهور الصيف على شاطئ البحر معهما ومع وليامز وزوجه . كان شلى يمني النفس بمتعة كبرى في هذا التصيف . وقد كلف ووليامز صاحبهما تريلافنى ببناء سفينة في جنوا ، بيد صديقه الكابتن روبرتس . وتسلفا اسماً لها : « دون جوان » ، تكريماً لبيرون ، الذى أوصى أيضاً بصنع يخت كبير ، اختار له اسم « بوليفار » . . وكان شلى ووليامز يمنيان النفس بسيادة البحر الأبيض المتوسط ! . .

وكان لا بد لتحقيق هذا المشروع من استئجار بيتين على

شاطئ البحر ، وقرر وليامز وزوجه أن يقوموا بجولة تفتيش نهائية ، وأخذوا معهما كلير ليسليها عن همومها

وما كادوا يغادرون بيزا حتى كتب لورد بيرون إلى شللي أن وباء التيفوس قد تفشى في رومانا ، ولم يكن لدى راهبات الدير وسائل للوقاية ، فأصيبت « ألجرا » بهذه الحمى ، على ما كان بها من سقم وضعف ، فماتت . . .

فذهب شللي وماري لزيارته . وكان أشد شحوباً من ذي قبل ، وإن كان أيضاً أشد هدوءاً من مما كان عليه

وخشى شللي أن ترتكب كلير عملاً عنيفاً ، إذا علمت بمصيبتها وهي على مقربة من بيرون ، فقرر أن يكرم عنها الخبر ، إلى ما بعد السفر

ولم يجد وليامز على الشاطئ كله إلا مسكناً واحداً خالياً كان من قبل ديراً قديماً من أديرة اليسوعيين ، وكان يشرف على خليج « سيزيا » البديع ، وكانوا يطلقون عليه اسم : « كازاماني » . . . وكان شللي يريد إبعاد كلير ، مهما يكلفه ذلك ، فقرر استئجار البيت ، على أن تسكنه الأسرتان معاً . وكان الطابق الأرضي لا يُسكن ، إذ تغمره مياه البحر عند ارتفاعها ، وكان الدور الوحيد فوق هذا مكوناً من قاعة كبيرة للطعام ، يؤدي أحد جوانبها إلى غرفة وليامز وزوجته ،

والجانب الآخر إلى غرفتين صغيرتين ، إحداهما لشلى ،
والأخرى لمارى وكليز . وسادهم الهم والغم فى الليلة الأولى .
وكانت الأمواج تموج تحتهم ، تناطح الصخور ، بصوت
يقبض الصدور . . . ولم يكونوا جميعاً ليفكروا إلا فى مصاب
كليز . . . وكانت هى تعزو كآبتهم إلى ضيقهم بوجودها ، فعرضت
عليهم عودتها إلى فلورنسا . فاحتجوا وعارضوا جميعاً . وهمست
جين فى أذن مارى بشىء ، ثم انسحبتا معاً إلى غرفة وليامز .
ولحق بهما شلى . وبعد هنيهة اتجهت كليز نحوهم ، فرأتهم فى ركن
يتحدثون باهتمام . وقطعوا حديثهم حين لمحوها . وعندئذ قالت :
— اللجرا ماتت ؟ ! . . .

وفى اليوم التالى كتبت خطاباً فظيلاً إلى بيرون ، فأعاده
إلى شلى شاكياً من خشونتها ، وأبدى استعدادها للسماح لها بعمل
ما تراه لدفن ابنتهما . فأجابت ، بتهكم كئيب ، بأنها من الآن
فصاعداً مشترك الأمر كله له . . . وأن كل ما تسأله تذكارة لابنتها
هو : خصلة شعر وصوره . فأظهر بيرون طاعة مدهشة ، وبعث
إليها بصورة صغيرة جميلة جداً ، وخصلة شعر شقراء . . وعادت
إلى فلورنسا ، لتعيش بين الغرباء عنها ، لا يعرفون شيئاً عن
حزنها ، فلا يجدونه لها . . .

- ٣٥ -

فتن شلى ببيت البحر « كازامانى » .. أحب فيه :
الوحدة الموحشة ، والغابة التى من خلفه ، والجون الصخرى
الخشبي ، وقرى الصيادين ، وأكوأخهم الحقيمة ..

أما مارى ، فتخبطت : حيرة ، وشقوة ، وتأففاً .. فهى
حامل مرة أخرى ، تؤثر لو عاشت فى مدينة على مقربة من
طبيب . وضاعت ذرعاً بوجود جين وليامز .. وثارت بينهما
مشاجرات حمقاء ، بسبب الخدم والآنية والطهى ! .. وكان
شلى يسرف فى الحديث بحماسة ، عن كمال جين ، ويسرف
فى نظم « السريناد » من آيات الشعر ، عنها .. و .. لها ..

وكان يرد على شكاوى امرأته بلطفه المعهود . يدللها ،
ويداعبها ، برقة وحنو ، وبروح عنها ، وكان يعلم أن حالة الحمل
تفسر من ألوان تدمرها وتمرمرها الكثير . فتحملها بعطف صبور .
وكان خاصة ما تعبته عليه أن قواه العظيمة التى آتاه الله لا ينتفع
بها لنفسه ، بل يسخرها لمنفعة غيره .. كأن شخصه شخص
أجنبي عنه ! .. ولا يشمل برّه وتفانيه الأقربين من صحبه ،
بل الغرباء المجهولين ..

وكان يذهب كل شهر إلى ليفورن ويعود بكيس مملوء نقوداً ،

يفرغه على البلاط . ويقسم النقود بمجراف الفحم قسمين متساويين ، النصف لمارى ، لأجرة البيت وتديره . ثم يقسم النصف الثانى أيضاً قسمين متساويين ، أحدهما تأخذه مارى كذلك لمصروفاتها الشخصية ، والثانى لشلى . . ولكن مارى تعلم المقصود من أنه « لشلى » . . فقد كان يذهب إلى أبيها جودوين ، ولأختها كلير ، ولأسرة هنت ! . . .

كتب شلى ، بعد موت ألجرا ، إلى الكابتن روبرتس ليححو عن المركب الذى يصنعه اسم « دون جوان » ويثبت بدله اسم : « آريل » . صار كل ما يذكره بيرون عنده مرذولاً . لذلك ما كان أشد دهشته وغضبه عند ما جاء المركب الصغير حاملاً على شراعه ، بحروف هائلة : « دون جوان » ! . . وكان ذلك من عمل بيرون ، إذ عرف بالتغيير المقصود ، فأمر الكابتن روبرتس بأن يضع ، رغم كل شيء ، طابعه الشيطاني على المركب الأفلاطوني . فلم يسترح شلى حتى محا عنه هذا العار ووضع عليه اسم : « آريل » . وكان لا بد له من طنين من الرصاص حتى يتزن . . فهو هكذا ، يظل قلقاً ، لا أمان له ، يعبث به النسيم ، ويلعب الهواء . .

وأراد شلى ووليامز صاحباً « آريل » أن يسيراه وحدهما مع غلام ملاح . وكان وليامز يدعى المعرفة بالبحر ، وكان شلى

جاءه لابه كالمراة ، وكاد خلال أول رحلة يسقط مرات عديدة .
من ظهر المركب ! ومع ذلك لم يكن أسعد منه ولا أهنأ يومئذ .
ولما رآه تريلاوني يقود السفينة أخذ بذراع وليامز ، ونصحه بأن
يبحث عن ملاح ماهر ، خبير بهذا الخليج . . .

وكان يصعب رسو « آريل » على رصيف « كازاماني »
لشدة التيار . فصنعوا زورقاً خفيفاً ليصلوا به إليه . . فأصبح
الزورق لعبة شلى الأثيرة عنده : يهيم بإطلاق نفسه ، تؤرجحه
الأمواج ، في هذه المحارة الخفيفة . .

وكان يحب الإقلاع مع صحبه هؤلاء في « آريل » في ضوء
القمر : عند قدميه ماري جالسة ، رأسها إلى ركبتيه ، تتذكر :
كيف أنها ، هكذا ، منذ عشر سنوات ، قد عبرت وإياه
المانش الهائج في جو عاصف . . . ما أكثر ما مرّ من حوادث
في هذه السنوات العشر ! . . وما أكثر ما تمخضت الحياة
الخائنة بخدع ، وكشفت عن أشياء لم يكن كلاهما عندئذ
يتصورها ! . . وفي آخر المركب : جين ، جالسة تغني لحناً
هندياً ، وتوقعه على القيثارة . . بينا هو يتأمل : سماء يونيه
الصافية ، والسحب البيضاء تتقنّع دلالات ضوء القمر الساطع . .
لم يكن يفكر . . كان يحس روحه تتحلل وتذوب تحت سنا
النور النقي ، في عطور الليل الدافئة . . إن شخصه ، الذي قد

من لحم ودم ، قد تلاشى في انجذاب روى للذند ، فلم يعد
إلا أثيراً ، يروج في الفضاء بخفة . . ونسجت له عطور السماء ،
وأضواء القمر ، وغناء جين ، شباكاً خفية ، يتأرجح فيها
كالطفل في مهده ، مصغياً إلى أنغام موسيقى باطنية ربانية . .

— ٣٦ —

كان شلى يرغب ، من وقت طويل ، في دعوة صديقه
الناقد هنت وأهله إلى إيطاليا ، لأن الدائنين وأعداءه السياسيين
قد جعلوا عيشهم في انجلترا مرّاً . وحصل من بيرون على وعد
بأن يؤسس مع هنت جريدة تختص بحق نشر جميع أعمال بيرون .
وهو امتياز كاف لنجاح الجريدة وذيوها ، ويهيئ لهنت ثروة
لا يحلم بها . وذهب بيرون إلى أبعد من ذلك في السخاء فرضى
بأن ينزل لهنت عن الدور الأرضى في قصره بمدينة بيزا . . . وتعهد
شلى بأن يؤثثه لهم . . .

وبعد متاعب ومصاعب وصلت قافلة هنت إلى ليثورن في
أواخر يونيه ١٨٢٢ . وكان تريلاونى ينتظرهم على اليخت «بوليفار» .
ووصل شلى ووليامز على «آريل» مندفعاً إلى الميناء ببراعة
فائقة . وبعد مظاهرات الفرح باللقاء اتجهت القافلة ، بقيادة
شلى ، نحو بيزا . . بينا ظل وليامز في ليثورن في انتظار

صديقه شللى ليعودا فى المركب معاً

وفى صباح اليوم الثامن من يوليه وافاه شللى ومعه تريلاونى ،
وقصد البنك ، واشترى مؤونة لبيتهم « كازامانى » . ثم اتجه
الأصدقاء الثلاثة صوب الميناء . وكان تريلاونى يريد أن يصحب
المركب « آريل » باليخت « بوليفار » . وأخذت السماء تبرد
شيئاً فشيئاً ، وتقلب بالسحب ، وهبت ريح خفيفة . . وتنبأ
الكابتن روبرتس بقرب هبوب العاصفة . فأكد وليامز ، وكان
يتعجل الرحيل ، أنهم سيصلون البيت فى سبع ساعات

وعند الظهر كان شللى ووليامز وبحارهما الفتي على ظهر
« آريل » ، وتريلاونى على ظهر « بوليفار » يعد عدته أيضاً
للرحيل . ودنا منهم مركب حرس الميناء ، للتحقق من أوراقهم ،
فسمح لشللى ومركبه بالإبحار . أما تريلاونى فلم تكن لديه
شهادة صحية ، وحاول التلصص ، فهده الضابط بالحجر الصحى
خمس عشرة يوماً . فعرض على صاحبيه أن يذهب ليتمم أوراقه
 ويعود سريعاً ، ولكن وليامز كان لا يستقر على حال من القلق . ولم
يكن لديهما وقت يضيعانه ، فقد كانت الساعة الثانية ،

وكان الهواء قليلاً ، فإذا جهدوا وصلوا عند دخول الليل

وأقلع « آريل » من الميناء ، بين الثانية والثالثة ، فى نفس
الوقت الذى أقلعت فيه « فلوكتان » إيطاليتان . . وألقى

تريلاوى « هلبه » غاضباً ، وطوى شراعه ، وظل يتابع ، بمنظار معظم ، مركب صاحبيه . فقال له ملاحه ايلخوى :

— كان عليهم أن يقلعوا هذا الصباح ، فى الساعة الثالثة أو الرابعة ... بدلا من الثالثة مساء .. وهم يلازمون الشاطئ كثيراً ، فسوف يتمكن التيار منهم هناك !

— إن هواء الأرض لا يلبث أن يساعدهم

— ربما زاد الهواء عما يعوزهم منه .. وهذه القلاع العدة على سفينة بلا سطح « دك » ولا ملاح هى الجئون يدور بها ! . انظر إلى هذه الخطوط السوداء هناك ، والخرق القذرة العابرة فوقها ، وذلك الدخان على الماء . . . إن الشيطان يدبر أمراً . . . كذلك ، من وراء رصيف الميناء ، كان الكابتن روبرتس يرقب « آريل » . فلما غاب عن بصره صعد إلى الفئار ، فرأى العاصفة توشك أن تهب وتتجه نحو المركب الصغير . . ثم لم تلبث السحب المدهمة أن حجبتة تماماً عن الأنظار !

وكان لجو الميناء وقدة ، وقد انقلب خانقاً ، وصار الهواء شواظاً من نار . وساد صمت ثقيل ، يقبض الصدور ، وينقض الظهور . ونزل تريلاوى إلى كابينه ، ونام إعياء . وبعد لحظات استيقظ على دوى السلاسل . فقد كان البحارة يلقون هلباً آخر . وعمت الميناء كله حركة المرح والمرج التى

تسبق هبوب العاصفة . وطووا القلاع ، وخفضوا الساريات ،
وأخرجوا الحبال الضخمة ، ولم يبق هلب إلا تشبث بالشاطئ ،
يعض عليه بأنياه الفولاذية . وساد الظلام التام . صار البحر
كتلة واحدة ، صماء قاتمة كالرصاص . الرياح تنفخ فيه ،
والمطر المدرار يهطل من فوقه ، ولا ينفذ إليه . ولاذت زوارق
الصيد بالشاطئ ، مسرعة ، متزاحمة ، لا تلوى على شيء .
وكان يُسمع : صفير ، ونداءات ، وأوامر ، وصرخات . .
ثم تغلب على ضجة البشر ، فجأة ، هزيم الرعد ، مزق الحجب ،
وزعزع الكائنات . .

وعند ما صحا الجو ، بعد بضع ساعات ، وراح تريلاوني
وروبرتس يمسحان الخليج طويلاً بالمنظار المعظم ، في قلق ،
أملًا في اكتشاف مركب شللي ، لم يجدا لأي مركب أثراً . . .

ودت ماري لو دفن شللي قرب ولده في مقبرة روما ،
تلك التي رآها جميلة جداً . لكن اللوائح الصحية لا تسمح بنقل
جثث الغرقى . فاقترح تريلاوني أن تحرق الجثثان على الشاطئ ،
على طريقة الإغريق القدماء . ولما تحدد يوم لهذه الشعائر أحاط
به بيرون وهنت . وقدمت السلطات التوسكانية شردمة من الجند

مزودين بالفؤوس والمعاول ، لكي ينهشوا في الرمل على جثتى شلالى
 ووليامز ، وكانتا قد طمرتاً في الرمل بعد أن دفع بهما البحر ،
 لحفظهما من المد والجزر . .

ونبش أولاً على جثمان وليامز . ووقف أصحابه على الرمل
 المحرق ينظرون إلى الجنود يعملون ، متطلعين ، بمزيج
 من الحزن والرعب ، إلى ظهور الرفات البشرية . . وظهر
 أولاً طرف منديل من الحرير الأسود ، ثم ياقة ، ثم الجسد
 في حالة من الانحلال ، بحيث كانت الأعضاء تتساقط بمجرد
 ما يلمسها الجند . . .

فنظر بيرون إلى تلك الكتلة المختلطة من اللحم والعظم ، وقال :
 — أهذه إذن رفات إنسان؟! .. كأنى بها هيكل حيوان!
 وبلغ به التأثير ، فحاول أن يخفيه ، إذ عده غير
 جدير بالرجال . . وفي اللحظة التى رفع فيها الجنود الجمجمة قال :
 « قفوا لحظة ! .. حتى أرى الفكّ . . » .. ثم أضاف : « إني
 أستطيع أن أعرف من الأسنان كل من خاطبته يوماً . . إني
 أنظر دائماً إلى الفم ، فهو يقول ما تحاول أن تخفيه العيون . . »
 وأعدت كومة كبيرة من حطب الصنوبر ، أشعل فيها
 تريلاوى النار . . فلم تلبث أن تأججت ، وهى تلتهم العظم
 واللحم ، وتلظّت بسرعة حامية ، حتى تراجع المشاهدون . .

واستعرت النار بشرارة وحشية ، ثم تألقت صافية ، لامعة ، فضية
ولما خبا قليلاً أوارها اقترب منها بيرون وهنّت ، وألقيا على
هذا الفراش الجنازى المتوقد : لبناً ، ومِلْحاً ، وخمراً ..
وقال بيرون بغتة :

— هلموا .. ولنجرب قوانا مع هذه المياه التى أغرقت
صديقينا .. ما مدى بعد مركبهما عن الشاطئ عندما غرق ؟ ..
وقفز إلى الماء عائماً .. وتبعه تريلاونى وهنت ..
ولما التفتوا وراءهم كانت محرقة الموت على الشاطئ لم تعد
إلا ذبالة تضىء وتخبو ...

وفى اليوم التالى جاء دور شلى ، الذى كان مطموراً
قرب فيارجيو ، بين البحر وغابة الصنوبر
وكان الجحوص صحوّاً جميلاً : رمال صفراء ، ومياه زرقاء ،
تؤلف ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، لوحة رائعة . ومن وراء
الأشجار ، تبدو قمم جبال الأبنين المتوجة بالثلوج البيضاء ، فى
السماء الموشاة بالسحب المرمية الهاربة ، التى طالما أعجب بها شلى
واحتشد أطفال البلد لدى هذا المشهد النادر .. ولكنهم لزموا
الصمت خاشعين .. وكان بيرون نفسه قد توزّعت الفِكَر والغموم :
— آه ! ... آيتها الإرادة الحديد ! .. أهذا إذن كل ما
بقى من شجاعتك ، ومضائك ، وعزيمتك ؟ ! .. لقد تحدّيت

الآلهة . . . وها أنت ذى ! . . لا عاصم اليوم من أمر الله ! . .
 وظل الجنود يحفرون نحو ساعة ، ولا يجدون الجثة . ثم
 فجأة ، تُسمع صوت ضربة جامدة جوفاء ، أُنذرتهم بأن فأساً قد
 ضربت جمجمة الرأس . . . فارتجف بيرون ! . . ومرت بذهنه
 كالبرق صورة شلى ، يوم تلك العاصفة ، على بحيرة جنيف ،
 عندما كانا معاً ، وقد شبك شلى ذراعيه على صدره ، ببسالة
 وعجز معاً ! . . فبدأ لبيرون أن تينك الذراعين كانتا رمزاً
 صادقاً لهذه الحياة الجميلة :

— لشد ما كان الناس قساة غلاة في الحكم عليه ظلماً
 وعدواناً . . فهو خير الرجال بلا استثناء ، وأقل من عرفت منهم
 أثرة وأنانية . . . ثم أى جنتلمان هو ! . . الرجل الكامل . . لم
 يعبر قط صالوناً رجل أكمل منه ! . .

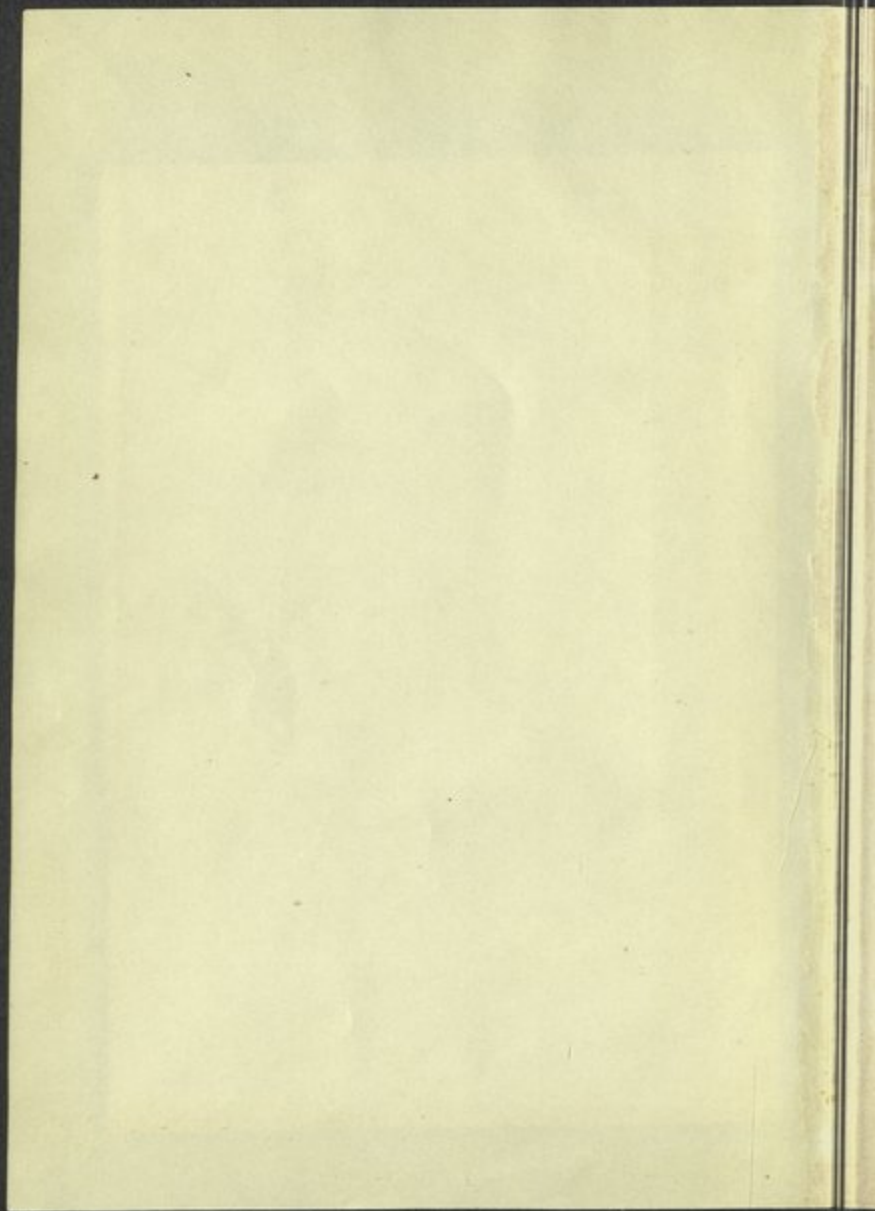
كانت الجثة مغطاة بالخير الذى لم يدعها إلا فحمًا . فنُسِرَ
 من جديد بنحور اللبان والزيت والملح على اللهب ، وصُبَّ النبيذ
 مدراراً على شلى ميتاً ، أكثر مما تجرع منه حياً . .

وضاق الجو ، وتكهرب بالحرارة الهائلة . . وبعد ثلاث
 ساعات كان القلب ، وهو على حجم كبير غير عادى ، لم
 يذب بعد . . فانتشله تريلاوى من الأتون المشتعل ، مجازفاً
 بإحراق يده . . وكانت الجمجمة التى شجّعها معول جندى قد

انفتحت ، وظل المخ يغلى فيها طويلاً . . كما لو كان في بوتقة !
 فلم يعد بيرون يستطيع احتمال هذا المشهد . ففعل ما فعل
 بالأمس : ألقي بنفسه متجرداً إلى البحر ، وسبح حتى يخته
 « بوليفار » ، الذى كان راسياً فى الجون
 وجمع تريلاوى بقايا العظام المنتثرة ورماد الرفات ،
 ووضعها فى صندوق كان قد جاء به ، مصنوع من خشب
 البلوط ، ومبطن بقطيفة سوداء . .

° ° °

— أما غلمان القرية ، الذين كانوا يحدقون بكل عيونهم
 ويعجبون ، فقد روى بعضهم لبعض :
 — إن هذه العظام النخرة ، إذا ما عادت إلى وطنها ، عاد
 الميت فولد من رماده ، وهب من رقاده ! . .

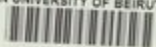


DATE DUE

5 JUL 2010



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01021890

828:S545YmuA

828
S545YmuA

828
S545YmuA
C.I